سلسلة دراسات الفكر المهدوي 3

المدينة الفاضلة المهدويّة

أفكار أساسيّة تأصيليّة ونقد النماذج المقابلة في الفكر الغربي

حسين إبراهيم شمس الدين

مركز براثا للدراسات والبحوث
Baratha Center for Studies and Research

المدينة الفاضلة المهدويّة

أفكار أساسيّة تأصيليّة ونقد النماذج المقابلة في الفكر الغربي

-حسين إبراهيم شمس الدين-

سلسلة دراسات الفكر المهدوي 3

المدينة الفاضلة المهدويّة

أفكار أساسيّة تأصيليّة ونقد النماذج المقابلة في الفكر الغربي

حسين إبراهيم شمس الدين

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

■ **عنوان السلسلة:** سلسلة دراسات الفكر المهدوي

■ **الناشر:** مركز براثا للدراسات والبحوث.

■ **اسم الكتاب:** المدينة الفاضلة المهدويّة

■ **الإشراف العام:**
الشيخ جلال الدين علي الصغير
د. محمد محمود مرتضى

■ **اسم الكاتب:** حسين إبراهيم شمس الدين

■ **الاخراج الفني:** خالد معماري

■ **التدقيق اللغوي:** بيانكا ماضيّة

◆ **رقم الطبعة:**
الأولى.

◆ **تاريخ الطبعة:**
2024 م- 1445هـ

◆ **عدد الصفحات:**
114 صفحة.

◆ **مكان الطبعة:**
بيروت - بغداد

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

Baratha Center for Studies and Research
www.barathacenter.com
barathacenter@gmail.com
مدير المركز د. محمد مرتضى
009613821638

الفهرس

مقدّمة 7

الفصل الأوّل 13

يوتوبيا المهدويّة في العقل والنصّ الديني الإسلامي

المبحث الأوّل 14

المجتمع المثالي المهدوي في الرؤية الكونيّة الإسلاميّة

- أوّلًا: القضيّة المهدويّة: ضرورة الدراسة على ضوء الأبعاد كافّة 14
- ثانيًا: المجتمع المهدوي: في الأبعاد المختلفة 16

المبحث الثاني 33

المجتمع المثالي المهدوي في النصوص الدينيّة

- أوّلًا: القرآن والسنن التاريخيّة وغاية العالم 34
- ثانيًا: نهج البلاغة وتصوير المجتمع المثالي 41
- ثالثًا: النصوص المهدويّة وتصوير المجتمع المثالي 45

الفصل الثاني 57

اليوتوبيا المهدوي في مقابل اليوتوبيات العالميّة

المبحث الأوّل 58

أنماط اليوتوبيا وعناصرها

أوّلًا: المصطلح والبداية 58
ثانيًا: أنواع تصنيفات الكتابات اليوتوبيّة 61

المبحث الثاني 75
اليوتوبيا المهدويّة ويوتوبيات العالم

أوّلًا: محوريّة العدالة الاجتماعيّة في اليوتوبيات اليونانيّة 76
ثانيًا: البعد الروحي في اليوتوبيات الدينيّة المسيحيّة 81
ثالثًا: اليوتوبيا المستندة إلى العلم التجريبي/الطبيعي 87
رابعًا: يوتوبيا محوريّة اللذّة 90

الفصل الثالث 95
نموذج أدب يوتوبي مهدوي

النصّ الأدبي المقترح 96

الخاتمة 109

المصادر والمراجع 111

مقدّمة

«المدينة الفاضلة» أو "المجتمع المثالي" وغيرها مِن التعبيرات والاصطلاحات تُعدّ مِن المفاهيم الأساسيّة في المنظومات الاجتماعيّة الفلسفيّة، التي تقدّم نفسها على أنّها الخارطة التي يحقّق تطبيقها السعادة أو الكمال أو الخير للمجتمع، سواء أكانت هذه المنظومات تعبّر بصراحة عن هذا الأمر أو تضمره، في النهاية إنَّ كلّ نظام فكري يضع نفسه مقابل أنظمة فكريّة أخرى، هو في الحقيقة يتّخذ موقف "الحلّ» لأزمة العالم والمجتمعات. وقد راج في القرن السادس عشر وما بعده استعمال لفظ "اليوتوبيا" للإشارة إلى هذا النوع مِن الفكر والأدب، وقد عرّفت اليوتوبيا بأنّها "اقتراح ما يراه المؤلّف أنّه النظام الأمثل للحكم، والذي يضمن الحريّة والعدالة والمساواة لجميع المواطنين، ويكفل لهم رخاء العيش بأقلّ مجهود. ويبدأ العرض ببيان ما في الدول والمجتمعات المعاصرة للمؤلّف مِن مفاسد وشرور ومظالم واستبداد، ثمّ ينتقل إلى بيان ما يقترحه مِن علاج للتخلّص مِن هذه الشرور"[1].

1 - عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، 1996، الملحق، صفحة 374.

فالماركسيّة مثلاً جاءت ردّ فعل – في وجه مِن وجوهها- على الرأسماليّة وتقسيم المجتمع بين طبقات مستغِلّة – بالكسر- وطبقات مستغَلّة – بالفتح-، فهي في موقفها هذا تطرح تصوّرًا افتراضيًّا آخر لمجتمع تجده لا يعاني مِن الاستغلال والهيمنة التي كان المجتمع الرأسمالي يعاني منها، وكذا إذا أتينا إلى النظام الديني – عمومًا- فإنّه برفضه للأنظمة الوضعيّة القائمة على إزاحة المعطى الوحياني – مِن الوحي- في تنظيم المجتمع، يطرح يوتوبيا خاصّة به للمجتمعات.

خلاصة الأمر، لا يمكن لأيّ مفكّر أو تيّار أو مدرسة أنْ يقدّم نظامًا فكريًّا منسجمًا ويريده أنْ يكون حاكمًا في المجتمع، إلّا ويستبطن في بنيته التحتيّة "مدينة فاضلة" أو "يوتوبيا" خاصّة به، نعم إلّا أنْ يقال بأنَّ بعض الفلسفات التي تحصر مهمّتها الفلسفيّة والفكريّة بالنقد – كما نجده في بعض التصويرات لمهام الفلسفة[1]- وتوجيه الأسئلة دون البناء، فعندئذ هذا الكلام لا يشملها.

---

1 - وجدت عبر التاريخ إجابات متعدّدة حول سؤال الجدوى مِن البحوث الفلسفيّة والتأمليّة، وإذا أردنا أنْ نصنف تصنيفًا إجماليًّا للخطوط العامّة التي تمثّل إجابات على سؤال «ما هي الفلسفة؟» وهي ثلاث إجابات:

1 - الفلسفة تبحث عن الحقيقة المطلقة والنهائيّة

2 - الفلسفة ليس لها وظيفة إلّا النقد، بل هي عبارة عن تفكير نقدي

3 - الفلسفة تعلّم كيفيّة الحياة بطريقة جيدة.

راجع: جان فرانسوا دورتيي، فلسفات عصرنا: تيّاراتها، مذاهبها، أعلامها، وقضاياها، ترجمة: إبراهيم صحراوي، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت- لبنان، 2009، صفحة: 21.

إنَّ الفكر الإسلامي عمومًا - أي بما يشمله مِن علوم متعدّدة كالكلام والفلسفة والفقه وغيرها- لم يكن بمعزل عن طرح نموذج عالمي لليوتوبيا والمجتمع المثالي، وذلك لشدّة تناسب هذا الطرح مع أهداف الإسلام وطبيعته، فإنّنا إذا رجعنا إلى القرآن الكريم، وجدنا الوعد بالنصر للمؤمنين[1] والوعد بالغلبة للأنبياء[2] وإقامة العدل والقسط كهدفين أساسيين لبعثة الأنبياء[3]، وغيرها مِن الموضوعات التي تعبرّ بشكل واضح عن جهاد ونزاع مستمرّ بين أهل الحقّ وأهل الباطل على طول التاريخ[4] لأجل الوصول إلى شاكلة إلهيّة للمجتمع الذي يسود فيه عبادة الله تعالى والحقّ والعدل[5]. ولا يحتاج هذا الأمر إلى كثير مِن الاستدلال، فإنَّ طبيعة الدين الإسلامي طبيعة اجتماعيّة تسعى إلى تحكيم أصول المبادئ الإلهيّة في المجتمع بكلّ جوانبه وأبعاده، ومِن هنا

---

1 - قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الرّوم (47).

2 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ المجادلة (21).

3 - قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الحديد (25).

4 - قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ و تَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ آل عمران (146).

5 - قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ الحج (41).

فليس غريبًا البحث عن "يوتوبيا" الإسلام.

كما يرتبط مفهوم "آخر الزمان" في الطرح الإسلامي بالقضيّة المهدويّة وظهور الإمام المهدي عليه السلام، فهو الإمام المدّخر لإقامة دين الله تعالى ونشر العدل والقسط. ولذا، فإنَّ البحث عن المجتمع المثالي في الفكر الإسلامي، يأخذنا بشكل حكمي إلى البحث عن القضيّة المهدويّة، وبالدقّة حول المجتمع المهدوي.

نعم، إنَّ البحث في القضيّة المهدويّة كثير الفروع والتشعّبات، فإنّنا نجد تارة البحث عن شخص الإمام محمّد بن الحسن العسكري عليه السلام وولادته وغيبته الصغرى وعلاقته بشيعته في هذه الأثناء والمتمثّلة بالتواصل عبر السفراء الأربعة، ومِن ثَمَّ غيبته الكبرى، والإجابة عن إشكالات مِن قبيل طول عمره وكيفيّة الانتفاع به في غيبته، وغير ذلك، وصولاً إلى علامات ظهوره وكيفيّة حركته بعد الظهور وما أخبرت عنه نصوص الملاحم مِن معاركه وانتصاراته، كلّ هذه القضايا موجودة في الفكر الروائي والكلامي الإسلامي، وقد صنّفت فيها الكتب عند الشيعة الإماميّة بكثرة، ويمكن القول إنَّ أقدم كتب صُنّفت في موضوع المهدويّة ثلاثة: كتاب "الغيبة" للنعماني[1]، وكتاب « كمال الدين وتمام النعمة» للشيخ الصدوق[2]،

1 - محمّد بن إبراهيم النعماني، كتاب الغيبة، نشر صدوق، طهران- إيران، 1397 هجري.

2 - الشيخ محمّد بن علي الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، تحقيق: علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلاميّة، طهران- إيران، 1395 هجري.

وكتاب «الغيبة» للشـيخ الطـوسي[1]، وهي كتب اعتنت بشـكل كبير بهذه الفـروع والتشـعّبات، ولكـنَّ بحثنا في هـذا الكتاب لا ينـدرج ضمن هذه الموضوعـات، بل هـو بحث يريد أوّلاً بيان الصـورة الموجودة في التراث الإسلامي حول المجتمع المهدوي كنموذج لليوتوبيا في التصوّر الإسلامي مقابل التصوّرات الأخرى التي طرحت في الفلسـفات الغربيّة والأوروبيّة؛ أي نريد أنْ نقدّم للقارئ «التصوّر الإسلامي» حول اليوتوبيا بناء على نموذج المهدويّة، ولا نريد الخوض في نقاشـات خلافيّـة في إثبات أو نقد ما يثار مِن إشـكالات حول أصل القضيّة المهدويّة؛ إذ هـذا موكول إلى محلّه مِن كتـب الكلام والحديـث، ولذا فيمكن أنْ نقـول إنَّ البحث الذي بين أيدينا هو إجابة على السـؤال الآتي: ما هي مبـاني وأصول اليوتوبيا المهدويّة في التصوّر الإسـلامي؟ وبماذا يفترق عمّا هو مطـروح مِن تصوّرات لليوتوبيا في الفضاء الغربي؟

وممّا سـبق، يظهر أنَّ البحـث ذو منهج مزدوج، فهـو بحث وصفي مِن جهة ومقارن مِن جهة أخرى، ولذا ينقسم إلى فصلين، يعالج الفصل الأوّل اليوتوبيا المهدويّة في التصوّر الإسـلامي – الإمامي بالخصوص-، وذلك مِـن خلال البحث عـن ذلك وفق معطيـات العقل والنـصّ، وأمّا الفصل الثـاني فيعالج المقارنة بين اليوتوبيا المهدويّـة وما هو موجود في الفضاء الغربي إجمالاً.

1 - الشـيخ محمّد بن الحسـن الطوسي، كتاب الغيبة، دار المعارف الإسلاميّة، قم- إيران، 1411 هجري.

وأضفنا فصـلاً ثالثًا، هو نموذج أدبي لطرح يوتوبي، على غرار الكتابات اليوتوبيّة التي تتّسـم بالنفحة الأدبيّة في غالبهـا، فقليلاً ما نجد في التراث اليوتوبي كتابًا نظريًّا أو فلسـفيًّا بحتًا، بل إنَّ غالب اليوتوبيات هي أدبيّات، سواء على نحو السرد الوصفي القصصي أو المحاورة وغير ذلك.

الفصل الأوّل:
يوتوبيا المهدويّة في العقل والنصّ الديني الإسلامي

المبحث الأوّل:
المجتمع المثالي المهدوي في الرؤية الكونيّة الإسلاميّة

● **أوّلًا: القضيّة المهدويّة: ضرورة الدراسة على ضوء الأبعاد كافّة**

القضيّة المهدويّة بما تشتمل عليه مِن مسائل متعدّدة مِن قبيل غيبة الإمام المهدي عليه السلام وطول عمره وانتظارنا له ووظيفة المنتظرين وغيرها مِن المسائل وصولًا إلى الظهور وطبيعة المجتمع المهدوي وما يجري بعد الظهور، هذه القضيّة والمسائل المرتبطة بها تشكّل بمجموعها حلقة مِن حلقات الفكر الإسلامي المنتظم، بحيث يكون البحث عن أحد أجزاء المنظومة الكاملة ناقصًا ما لم يتلق الباحث الجزء مِن حيث «كونه جزءًا مِن كلّ»؛ أي مِن حيث كونه ذا ارتباط بأجزاء أخرى تشكّل المنظومة الكاملة.

بعبارة اخرى، لو مثّلنا الأمر بلوحة فنيّة، ولنفترضها لوحة تصوّر لنا مشهدًا طبيعيًّا كغابة مثلاً، ومِن ثَمَّ أردنا أنْ نحلّل معاني ودلالات أحد أجزاء اللوحة، والذي يشكّل سنتيمترًا واحدًا، فقصرنا النظر عليه على الطريقة "الميكروسكوبيّة" وحلّلنا الألوان والأطياف التي يتدرّج فيها اللون، سنخرج بنتيجة أنَّ هذا الذي حلّلناه وفحصناه عبارة عن لون أخضر مِن الدرجة الكذائيّة وله خصائص معيّنة وغير ذلك، ولكنّنا مهما أطلنا البحث في الخصائص، لن نعرف أنَّ هذا الجزء – السنتيمتر الواحد- في الحقيقة، هو ورقة "شجرة" مِن أشجار الغابة الموجودة في اللوحة؛ أي إنَّ الخروج مِن « الميكرو micro" في النظرة إلى " الماكرو macro" والنظرة

الشاملة التي تضمّ الأجزاء إلى بعضها، يُكسب الجزء نفسه دلالات واقعيّة وحقيقيّة لم نكن قد عرفناها قبلاً.

والأمـر كذلـك في المنظومات المعرفيّـة والفكريّة، لا سـيّما المنظومة الدينيّـة الإسـلاميّة، حيث إنَّ مِـن الآفات التي قد تصيـب أيّ باحث، هو تفكيـك الأفـكار والقضايـا الدينيّة بعضها عـن بعض، وتحليلها بشـكل متجـزّئ وبطريقـة " ميكروبيّـة" دون الالتفات إلى ضرورة النظر الشـامل والعام، حيث إنَّ هـذه النظرة تفتح للذهن وللمعرفة الدينيّة عمومًا "معاني ودلالات" واقعيّة وحقيقيّة لم تكن لتتكشّف مِن قبل، فمثلاً إذا أردنا التعرّف على سـيرة الأئمّة الأطهار عليهم السـلام، لا بدّ لنا أنْ لا نكون بمعزل عن نظريّة الإمامة وحقيقتها وأهدافها وغايتها، فلو قصرنا النظر على الأحداث التاريخيّـة محضًا، سـنخرج بمجموعة مِـن الأحداث، ولكـنْ نفس هذه الأحداث والأفعال الصادرة عن الأئمّة عليهم السـلام، ستتّخذ لونًا ومعنى جديدًا إذا أخذنا بالحسبان أنَّ هذه الأحداث تمثّلات خارجيّة للإمامة التي لها أصول عقائديّة ولوازم مِن قبيل العصمة وغير ذلك.

وقضيّة "المهدويّة" أيضًا ليسـت بمعزل عـن هذا الأمر، بمعنى أنّه لا بدّ عند البحث عن مسـألة مِن مسائل المهدويّة، كقضيّة الانتظار أو الغيبة، أنْ ننظر إليها على أنّها جزء مِن رؤية ومشـهديّة أشـمل شـكّلت هذه المسألة جـزءًا لها، وهذه المشـهديّة الأوسـع هي التـي تتمظهـر في علاقة قضيّة "الغيبة" مثلاً بسـائر قضايا المهدويّة مِن جهة، وبسائر المنظومات العقديّة والأخلاقيّة والتشريعيّة والفلسـفيّة الإسلاميّة مِن جهة أخرى، فإنَّ "الغيبة" نفسها عندئذ سيكون لها أبعاد أخرى على مستوى الفهم والإدراك إذا نظرنا

إليها مِن عدّة محدّدات وأبعاد.

بعد هذا البيان، يمكن القول إنَّ موضوع الدراسة والبحث في هذا الفصل، والمتمثّل في قضيّة " المجتمع المهدوي" أيضًا يندرج ضمن هذا المنهج الذي ذكرناه، ولذا لا بدّ أنْ نتعرّف على العناصر التي تترابط وتتشابك فيما بينها لتنتج لنا رؤية عامّة وفي الوقت نفسه ذات معان ودلالات عميقة حول طبيعة المجتمع المهدوي، وضرورته، وعناصره المكوّنة الأساسيّة.

● ثانيًا: المجتمع المهدوي: في الأبعاد المختلفة

1 - المجتمع المهدوي مِن منظار التوحيد

التوحيد هو العقيدة والمسألة التي تشكّل جوهر التعاليم الإسلاميّة عمومًا والعقائديّة خصوصًا، بحيث يمكننا القول إنَّ القضايا الدينيّة كمسألة الصفات الإلهيّة والنبوّة والإمامة والمعاد، ترجع في حقيقتها إلى التوحيد، ومقصودنا مِن التوحيد المعنى الشامل له الذي يشمل ما يمكن أنْ نصطلح عليه «معرفة الله تعالى».

فمثلاً في قضيّة «النبوة وبعث الرسل والأنبياء"، نجد أنَّ مسألة التوحيد ومعرفة الله تعالى مِن الدلائل التي ترشد العقل إلى التصديق بإرسال الأنبياء عليهم السلام، وقد ذكرت بعض الآيات القرآنيّة هذه القضيّة، حيث قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ مِن أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُمْ مَا**

﴿لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ الأنعام (91).

حيث يظهر من هذه الآية الشريفة بوضوح أنَّ مرجع إنكار بعض المنكرين للنبوّة أنّهم "ما قدّروا الله حقّ قدره"؛ أي لم يعرفوه حقّ معرفته، وأنَّ إنكارهم للنبوّة فرع جهلهم بالله تعالى، «فإنَّ في إنكار إنزال الوحي حطًّا لقدره تعالى وإخراجًا له من منزلة الربوبيّة المعتنية بشؤون عباده وهدايتهم إلى هدفهم من السعادة والفلاح"[1]. وأفادت هذه الآية أيضًا "أنَّ اجتراءهم على الله سبحانه وعدم تقديرهم حقّ قدره، إنّما هو من حيث أنَّهم نفوا إنزال الوحي والكتاب منه تعالى على بشر، فدلّ ذلك على أنَّ من لوازم الألوهيّة وخصائص الربوبيّة أنْ ينزل الوحي والكتاب لغرض هداية الناس إلى مستقيم الصراط والفوز بسعادة الدنيا والآخر."[2]

وقد ورد أيضًا من طريق الروايات والنصوص المرويّة عن الأئمّة عليهم السلام أيضًا ربط قضيّة النبوّة بالتوحيد ومعرفة الله تعالى، حيث قَالَ أَبُو جَعْفَر، مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ الْكُلَيْنِيُّ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِيه، عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَمْرٍو الْفُقَيْمِيِّ، عَنْ هِشَام بْنِ الْحَكَم: عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ قَالَ لِلزِّنْدِيقِ الَّذِي سَأَلَهُ: مِن أَيْنَ أَثْبَتَ

1 - العلاّمة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، 1390 هجري، الجزء 7، صفحة 269.

2 - المصدر نفسه.

الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ؟ قَالَ: إِنَّا لَمَّا أَثْبَتْنَا أَنَّ لَنَا خَالِقاً، صَانِعاً، مُتَعَالِياً عَنَّا وَعَنْ جَمِيعِ مَا خَلَقَ، وَكَانَ ذَلِكَ الصَّانِعُ حَكِيماً مُتَعَالِياً، لَمْ يَجُزْ أَنْ يُشَاهِدَهُ خَلْقُهُ وَلَا يُلَامِسُوهُ؛ فَيُبَاشِرَهُمْ وَيُبَاشِرُوهُ، وَيُحَاجَّهُمْ وَيُحَاجُّوهُ، ثَبَتَ أَنَّ لَهُ سُفَرَاءَ فِي خَلْقِهِ يُعَبِّرُونَ عَنْهُ إِلَى خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ، وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ وَمَا بِهِ بَقَاؤُهُمْ وَفِي تَرْكِهِ فَنَاؤُهُمْ، فَثَبَتَ الْآمِرُونَ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ فِي خَلْقِهِ، وَالْمُعَبِّرُونَ عَنْهُ جَلَّ وَعَزَّ، وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَصَفْوَتُهُ مِن خَلْقِهِ، حُكَمَاءَ مُؤَدَّبِينَ بِالْحِكْمَةِ، مَبْعُوثِينَ بِهَا، غَيْرَ مُشَارِكِينَ لِلنَّاسِ- عَلَى مُشَارَكَتِهِمْ لَهُمْ فِي الْخَلْقِ وَالتَّرْكِيبِ- فِي شَيْءٍ مِن أَحْوَالِهِمْ، مُؤَيَّدِينَ مِن عِنْدِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ بِالْحِكْمَةِ، ثُمَّ ثَبَتَ ذَلِكَ فِي كُلِّ دَهْرٍ وَزَمَانٍ مِمَّا أَتَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ مِن الدَّلَائِلِ وَالْبَرَاهِينِ؛ لِكَيْلَا تَخْلُوَ أَرْضُ اللَّهِ مِن حُجَّةٍ يَكُونُ مَعَهُ عِلْمٌ يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ مَقَالَتِهِ وَجَوَازِ عَدَالَتِهِ."[1]

وخلاصة الأمر، إنَّ قضيّة النبوّة في الفكر الديني الإسلامي ترتكز على عمود التوحيد، والأمر عينه يجري في مسألة الإمامة والاعتقاد بالإمام وضرورة وجوده، فقد ورد في بعض الكتب الحديثيّة عن الإمام الصادق عليه السلام: خرج الحسين بن عليّ عليهما السلام على أصحابه فقال: أيّها الناس إنَّ الله عزّ وجلّ ذكره ما خلق العباد إلّا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه، فقال له رجل: يا

1 - محمّد بن يعقوب الكليني، الكافي، دار الحديث، قم -إيران، الطبعة الثالثة، 1388 هجري شمسي، ج1: 409- 411.

بن رسـول الله بأبي أنت وأمي فما معرفة الله؟ قال: معرفة أهل كلّ زمان إمامهم الذي يجب عليهم طاعته."[1]

وسنزيد هذه القضيّة بيانًا فيما يأتي لارتباطها بمحلّ البحث أي القضيّة المهدويّة.

وكذلك الأمر نجد أنَّ المعاد ورجوع النفوس الإنسانيّة إلى الله تعالى أيضًا مِن لوازم المعرفة بالحقّ تعالى وأسمائه وصفاته، ودلّت على ذلك الآيات والنصوص التي ترشد إلى حكم العقل في هذه المسألة، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ و تَعَالَىٰ: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾ المؤمنون (115). فالحكمة الإلهيّة عدم العبث مِن الأمور التي تحتّم على العقل الحكم بضرورة المعاد.

هذا على المستوى النظري، وأيضًا على المستوى العملي والسلوكي فإنَّ العمل الصالح أيضًا له ارتباط بالتوحيد ومعرفة الله تعالى، ومِن هنا يذكر القرآن أنَّ مَن يعمل السيّئات والقبائح مِن الأفعال، فإنَّ فعله هذا يؤول في النهاية إلى جرّه نحو إنكار الألوهيّة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ الرّوم (10). فالعمل الطالح لا يجتمع مع طهارة الاعتقاد بالله تعالى وأسمائه وصفاته وآياته.

مـا ذكرناه أعلاه كان بيانًا إجماليًّا لقضيّة رجوع الاعتقادات والسـلوك

1 - المـولى محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار الجامع لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، مؤسّسة الفاء، بيروت، 1983، الجزء 23، صفحة 83.

إلى محوريّة التوحيد ومعرفة الله تعالى وفق المنظومة الاعتقاديّة والرؤية الكونيّة الإسلاميّة.

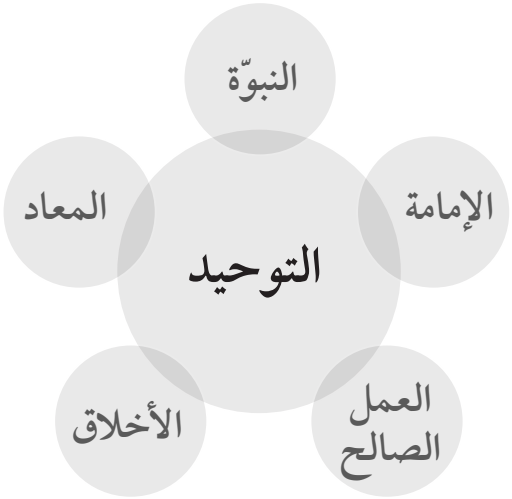

اليوتوبيا المهدويّة في الرؤية الكونيّة التوحيديّة

كلّ فكرة عقائديّة – كما تقدّم- لها فرع وشأن يربطها بالصفات الإلهيّة، والمهدويّة وفق المعتقد الإسلامي الإمامي أحد مصاديق هذه المسألة، وحيث إنَّ كلامنا في القضيّة المهدويّة خاصّ بالبحث عن «المجتمع المهدوي» أي ما سيلي الظهور المبارك، فإنَّ بحثنا عندئذ يقع على ارتباط تشكيل المجتمع المهدويّ بالأسماء والصفات الإلهيّة.

وأوّل قضيّة يمكن أنْ تُطرح في هذا المجال، هي قضيّة «العناية الإلهيّة» بالعالم، حيث تشكّل هذه القضيّة مسألة مهمّة في التراث الفكري الكلامي

والفلسفي الإسلامي، وترجع إلى مسألة عميقة في معرفة الله تعالى، وهي أنَّ الحقّ سبحانه وتعالى، لا يصدر عنه إلّا ما هو مقتضى كماله المطلق، فلا يصدر مِن الجميل إلّا الجمال، وعدم صدور الجميل مِن الجميل المطلق يرجع إلى افتراضات ثلاثة:

1 - إمّا أنْ يكون عاجزاً عن الظهور بالجمال والكمال

2 - وإمّا أنْ يكون جاهلاً بما عنده مِن الجمال والكمال

3 - وإمّا أنْ يكون هناك مانع خارجي يمنعه مِن إظهار الجمال والكمال.

وكلّ هذه الاحتمالات بالنسبة إلى الله تعالى مستحيلة؛ لأنّه القادر المطلق والقدرة ذاته، فلا يمكن أنْ يكون عاجزاً (الاحتمال الأوّل)، وهو العالم المطلق بل العلم ذاته تعالى، فلا يكون جاهلاً (الاحتمال الثاني)، كما أنّه تعالى هو الواحد الأحد الذي لا شريك له في الوجود المطلق، فلا يمكن أنْ نتعقّل وجود شيء يقهره أو يمنعه (الاحتمال الثالث).

فعندئذ، لا يبقى إلّا أنْ يفيض ويظهر منه الجمال والكمال، الذي هو مقتضى علمه وقدرته وحياته، وهذا الظهور شامل في كلّ عوالم الوجود بما يتلاءم مع العالم نفسه. وبعبارة أخرى، إنَّ خلق العالم إنّما كان لغاية الكمال فقط، ولم يكن إيجاد العالم لأجل النقص والشرور والظلم وغير ذلك، فهذه الأمور ممّا لا تتعلّق بها إرادة الله تعالى، بل هي إنْ وجدت فلأجل تزاحم عالم المادّة وطبيعة الحدود الزمانيّة والمكانيّة وغيرها، ولكنَّ إرادة الله تعالى في خلق عالمنا، تعلّقت بالغاية الأشرف والأكمل التي يكون عليها هذا العالم، وهذا كما لو سألنا نجّارًا حكيمًا بأنّه يشتغل بالنجارة لأجل القطع والفتات الذي يرميه في النفايات أم لأجل التحفة الفنيّة النهائيّة التي يصنعها؟

لا ريب أنّه يقول إنَّ الأصل في الصنع هو المصنوع الأشرف، وما الفتات إلّا لوازم عرضيّة لصنع الأشرف، هكذا الأمر – ولو بوجه بعيد وتشبيهي- في مسألة خلق العالم مِن قبل الله تعالى، وقد ذكر الحكماء في مباحث "العناية والجود" في الفلسفة الإسلاميّة هذا المبحث، قال صدر المتألّهين: «إرادته [سبحانه وتعالى] للأشياء عين علمه بنظام الخير الأكمل الأصلح، الذي هو تابع لعلمه بذاته وعلمه بذاته هو بعينه داع له إلى إفادة الخير والجود"[1]. وممّا يعبرّ به هذا الحكيم العظيم عن صاحب العصر والزمان عليه السلام بأنّه "ثمرة العالم وكماله"، وهو ما يشتمل على إشارة لطيفة على ما ذكرناه، حيث يقول في بعض مصنّفاته "صاحب هذا العصر والزمان وهو المهدي القائم بالقسط والعدل على بواطن أهل العلم والايمان، ثمّ على ظواهر الخلائق مِن الإنس والجانّ في آخر الزمان، إذ به يملأ اللّه الأرض قسطا وعدلاً بعدما ملئت ظلمًا وجورًا، فيكون وجوده ثمرة هذا العالم وكماله»[2].

وأفاد العلاّمة الطباطبائي أنَّ هذا المعنى موجود في النصوص الروائيّة أيضًا، حيث قال "والروايات المثبتة للرجعة[3]، وإنْ كانت مختلفة الآحاد،

1 - صدر الدين شيرازى محمد بن ابراهيم. 1378. سه رساله فلسفى (متشابهات القرآن - المسائل القدسية - أجوبة المسائل) (أجوبة المسائل). قم - ايران: دفتر تبليغات اسلامى حوزه علميه قم. مركز انتشارات.، صفحة 324

2 - صدر الدين شيرازى محمد بن ابراهيم. 1366. تفسير القرآن الكريم.. قم - ايران: بيدار، الجزء 4، صفحة 221.

3 - المقصود الروايات المتّحدثة عن رجعة أئمّة أهل البيت عليهم السلام وظهور دولتهم وحاكميّتهم في الأرض، وذلك بعد قضيّة الظهور.

إلاّ أنّهـا عـلى كثرتها متّحدة في معنى واحد، وهو أنَّ سـير النظام الدنيوي متوجّـه إلى يـوم تظهر فيه آيـات الله كلّ الظهور، فلا يعصى فيه سـبحانه وتعـالى بل يعبـد عبادة خالصة لا يشـوبها هوى نفـس، ولا يعتريه إغواء الشـيطان، ويعود فيه بعـض الأموات مِـن أولياء الله تعـالى وأعدائه إلى الدنيا، ويفصل الحقّ مِن الباطل"[1].

عليـه، فإنَّ علم الله تعالى تعلّق في إيجاد الغاية التي يكون عليها عالمنا المـادّي الطبيعـي بأجمل ما يكون مِـن صورة وهيئة، وهـي صورة العدل والجـمال والنـور، وهذا هو بكلّ بسـاطة "المجتمع المهـدوي" في أحد أبعاده، نعم تبقى قضيّة، وهي "شـاكلة وهيئة الإنسـان في هذا المجتمع"، فنحن إذا أثبتنا أنَّ علم الله تعالى – الذي لا يتخلّف- تعلّق بإيجاد المجتمع الأكمـل، فلا بدّ مِن معرفة الصـورة المعنويّة والكماليّـة التي يكون عليها الإنسـان في هذا المجتمع، وهذا ما سيتكفّل البحث الآتي- حول النفس- بتسليط الضوء عليه.

2 - ثانيًا: المجتمع المهدوي مِن منظار النفس الإنسانيّة

أ - مباحث النفس الإنسانيّة في الرؤية الكونيّة

إنَّ مباحث النفس الإنسانيّة تأخذ في الرؤية الكونيّة الإسلاميّة – سواء في علم الكلام أو الفلسـفة أو العرفان أو حتّى مباحث التفسير- مجالاً واسعًا مِـن البحـث والتأمّلات، وإذا أردنـا أنْ نرصد تفرّعات وتشـعّبات مبحث

1 - العلاّمة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، 2: 109

النفس، فإنّنا نجده في المباحث الآتية:

أوّلًا: المباحث المرتبطة بالمعاد، حيث إنَّ البحث الفلسفي والكلامي- وبالخصوص بعد مرحلة المحقّق الطوسي- قد ربطت مسألة النفس بمبحث المعاد وإثباته، حيث ذكروا أنَّ إثبات تجرّد النفس الإنسانيّة، هو شرط مِن شروط إثبات أنَّ لها حياة بعد الموت، وبالتالي لها معاد ورجوع إلى الله تعالى، وبعبارة أخرى، ذكروا أنَّ حقيقة الإنسان إنّما هي بروحه ونفسه المجرّدة، التي إذا تلف الجسد لا تتلف بتلفه، وإنّما تفارقه؛ لأنَّها في أصل ذاتها ليست مِن سنخه بل هي مجرّدة عن كلّ ما يرتبط بالمادة، ومِن هنا يثبت أنَّ لوجودها امتداد بعد الموت، ومِن هنا ما ذكره العلاّمة الطباطبائي مِن أنَّ تجرّد النفس هو "بمعنى كونها أمرًا وراء البدن وحكمها غير حكم البدن وسائر التركيبات الجسميّة، لها نحو اتّحاد بالبدن تدبّرها بالشعور والإرادة وسائر الصفات الإدراكيّة، [...] أنَّ الإنسان بشخصه ليس بالبدن، لا يموت بموت البدن، ولا يفنى بفنائه، وانحلال تركيبه وتبدّد أجزائه، وأنّه يبقى بعد فناء البدن في عيش هنيء دائم، ونعيم مقيم، أو في شقاء لازم، وعذاب أليم، وأنَّ سعادته في هذه العيشة وشقاءه فيها مرتبطة بسنخ ملكاته وأعماله، لا بالجهات الجسمانيّة والأحكام الاجتماعيّة".[1]

هذا مضافًا إلى أنّنا نجد عند الفلاسفة وبعض المتكلّمين استئنافًا لبحث النفس في مواطن ومراحل المعاد ويوم القيامة، حيث ذكروا أنَّ اللذّات

1 - العلاّمة الطباطبايى، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، الجزء 1، صفحة 350.

والشـقاوات ليست جسـمانيّة فقط – بمعنى مِن المعاني- بل هناك لذّات وآلام مجـرّدة عن المـادة، وهي اللذّات العقليّـة[1] التي جاء في النصوص الدينيّة إشـارات إليها، وبالتالي إنَّ تجرّد النفس الإنسـانيّة يُثبت مضافًا إلى أنَّ لهـا معادًا وحياة أخرى غير الحياة البدنيّـة، أنَّ العالم الآخر أرحب مِن اللذّات والعذابات الجسمانيّة بحيث تشمل سنخ الأمور المجرّدة العقلانيّة.

وكذلـك الأمـر أيضًا تدخل مباحـث أخرى مِن قبيل حـشر الأطفال بل والحيوانات أيضًـا في المباحث المتعلّقة بالنفس، ولسـنا بصدد تفصيلها كي لا نخرج عن محلّ البحث.

ثانيًـا: المباحث المرتبطة بالنبـوّة والإمامة، وبالدقّـة المرتبطة بمباحث الولايـة – حيـث ذكـروا أنَّ الولاية هي باطـن النبوّة والإمامـة-، وفي هذا المجـال ذكر المتكلّمون وبعض الفلاسـفة عمومًا أنَّ النبـوّة والإمامة إنّما تثبت مسائلها بالنظر إلى ضرورة التشريع وضرورة العدالة الاجتماعيّة التي لا بـدّ فيها مِن قائـم على القانون متميّـز عن غيره مِن بني نوعه مسـتحقّ للطاعة[2]، وليس إلاّ النبيّ أو الإمام، ولكنَّ بعض حكماء الإسلام الآخرون

1 - راجع: ابن سـينا، الشفاء- الإلهيّات، مكتبة السيّد المرعشي النجفي، قم- إيران، 1404 هجري.

2 - قال الشـيخ الرئيس ابن سـينا: «لمّا لم يكن الإنسـان بحيث يسـتقلّ وحده بأمر نفسـه لا بمشـاركة آخر مِن بني جنسـه، وبمعاوضة ومعارضة تجريان بينهما يفرغ كلّ واحـد منهما لصاحبـه عن مهمّ لو تولاّه بنفسـه لازدحم على الواحـد كثير، وكان ممّا يتعـسّر إنْ أمكـن وجب أنْ يكون بين الناس معاملة وعدل يحفظه شرع يفرضه شـارع متميّـز باسـتحقاق الطاعة لاختصاصه بآيات تـدلّ على أنّها مِن عند ربه»، الإشـارات والتنبيهات، نشر البلاغة، قم -إيران، 1375 هجري، صفحة 144.

دخلـوا في قضيّة إثبـات الولاية مدخلاً آخر متفرّعًا عـلى مباحث النفس، حيث ذكروا أنَّ النفس النبويّة أو النفس الوَلويّة – نسبة إلى الوليّ- هي نفسٌ كاملة مِن حيث ارتباطها بالله تعالى وعبوديّتها وعلمها، فالوليّ هو صاحب النفس القدسـيّة التي تستفيض مِن المبادئ العالية علمها وحكمتها، وهي صاحبة العقل العملي التام الذي لا يزاحمه هوى ولا غفلة.

مِن هنا، ذكروا أنَّ وجود إنسـان كامـل كهذا في كلّ زمان مِن ضروريّات العناية الإلهيّة[1].

ب - موقع القضيّة المهدويّة مِن الرؤية الكونيّة بخصوص النفس الإنسانيّة

ولكنْ يبقى السـؤال: ما هـو الربط بين هذا المبحـث وقضيّة المجتمع المهـدوي؟ أي إنَّ البحث الذي نحن بصدده هو المجتمع المهدوي، وما علاقة البحث عنه بالبحث عن «نفس الإمام عليه السلام»؟

في الجـواب على ذلك لا بـدّ مِن بيان العلاقة بين حقيقة الظهور والغاية التـي لأجلهـا يكـون الظهور وحضـور المعصـوم والإنسـان الكامل في المجتمـع، ومنه يظهر العلاقة بين النفـس الكاملة للإمام والمجتمع الذي يكون قائده.

وببيان إجـمالي، إنَّ مِن الظلم الفكري أنْ نحـصر الإمام وغيبته بمنظار الاصـلاح الاجتماعي، كأنْ نقول إنَّ للإمام عليه السـلام خارطة إصلاحيّة

1 - راجـع: صـدر المتألهـين الشـيرازي، أسرار الآيـات، انجمن حكمت وفلسـفه اسلامي، طهران- إيران، 1360 هجري شمسي، صفحة 108 وما بعدها.

تشــمل توزيع الثروات وبناء الاقتصاد والسياسة والمجتمع، وبهذا يتحقّق العدل، الذي هو عندئذ عدل اجتماعي ســياسي اقتصادي، وهذه هي غاية الظهور والهدف الذي لأجلــه يظهر الإمام وتظهر حكومته، فإنَّ الأمر وإنْ كان كذلك، ولكنْ حصر الظهور بهذه المسألة، يعتبر نقصًا في الرؤية حول حقيقة الظهــور والمجتمع المهــدوي؛ إذ إنَّ الإصــلاح الاجتماعي الذي ســيظهره الإمام عليه السلام، هو أحد مراتب العدل والقسط التي ستجري عــلى يديه، ولا يمكن اختزال كلّ مــا يريد القيام به في هذه الزاوية والبُعد، بل إنَّ النصوص الدينيّة وكذلك الدليل العقلي، يرشدنا إلى أنَّ غاية الظهور هو تشــكّل مجتمع تكتمل فيه النفوس الإنســانيّة على شاكلة نفس إمامها، وقــد ورد هذا المعنــى الدقيق في رواية الإمام أمير المؤمنين عليه الســلام لكميل بن زياد النخعي على ما ســيأتي عند البحث عن اليوتوبيا المهدويّة في النصوص الدينيّة، ولكنْ ما نريد بيانه هنا – وهو ما أشرنا إليه سابقًا- هو صورة النفوس المتناســبة مع المجتمع المثالي، أي الشــاكلة الإنسانيّة في عصر الظهور وما يليه.

وبيــان ذلــك، أنَّ مجتمع الظهور هــو مجتمع معنــويّ بالدرجة الأولى، يحقّق للبشريّة طريق الســلوك إلى الله تعالى، مِن قبيل العبادة على الوجه اللائق بالإنســانيّة والمعرفة الكاملة بالله تعالى وأسمائه، وما ذلك إلّا لأنَّ المجتمــع الإلهي الذي يقوده الوليّ الكامل، له جهة أرضيّة مِن قبيل حفظ النظام ومنع التعدّي الاقتصادي والسياسي وما إلى ذلك، وله جهة سماويّة معنويّة تهدف إلى تهذيب النفوس وترويضها، وتهيئتها بإخراج استعداداتها الكماليّــة إلى مرحلة الفعليّة والبروز، ولذلك فــإنَّ اليوتوبيا المهدويّة هي

يوتوبيا لها ظاهر اجتماعي وباطن نفسي لأفراد المجتمع.

3 - المجتمع المهدوي مِن منظار الحياة الآخرة

أ - العلاقة بين الدنيا والآخرة في الرؤية الكونيّة الإسلاميّة

العلاقة بين الدنيا والآخر هي مِن القضايا المحوريّة أيضًا في الرؤية الكونيّة الدينيّة، لا سيّما الإسلاميّة، حيث شكّل السؤال حول الرابطة بينهما والعلاقة التي تحكم عالم الدنيا وعالم الآخرة سؤالاً مِن أسئلة كثيرة تشتمل على ثنائيّات، مِن قبيل العلاقة بين الروح والجسد، العلاقة بين الفرد والمجتمع، العلاقة بين الله تعالى والمخلوق إلى غير ذلك مِن الثنائيّات التي وقعت محلّ بحث عند الفلاسفة والمتكلّمين.

فما هو الرابط بين الدنيا والآخرة؟ هل هي رابطة عالمين منفصلين عن بعضهما البعض، كما لو كانت الآخرة هي كوكب آخر غير كوكب الأرض، فتكون الحياة الآخرة هي حياة شبيهة بالحياة الدنيا ولكنْ في مكان ومجال حيوي آخر؟

أم إنَّ العلاقة بينهما علاقة ارتقائيّة طوليّة، لا علاقة انتقاليّة عرضيّة، بحيث تكون الآخرة بالدقّة هي ارتقاء النفوس والمجتمعات إلى عالم أرفع وأعلى مِن العالم المادّي الطبيعي؟

يستدلّ الحكماء وبعض المتكلّمين الإسلاميين على أنَّ الآخرة ليست "دنيا ثانية" بل هي عالم أرفع مِن العالم الدنيوي، وهذا الأمر نجد له الشواهد والأدلّة مِن النصوص الدينيّة كما العقل والبرهان، بل إنَّ بعض المفسّرين كالعلاّمة الطباطبائي يبني تصوّرًا راقيًا حول هذا الأمر، فيذكر

أنَّ الآخرة في الحقيقة هو انكشـاف الحقائق التي كانت مستورة في الدنيا، حيث يعلّـق على قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِـن الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ الرّوم (7)، بما لفظه "هذه الآية تشعر بأنّ للحيوة الدنيا شيئًا آخر غير ظاهره، وأنّه هي الآخرة لمكان الغفلة. كما يستفاد من كلامك تقـول لصاحبك: إنّك أخـذت بظاهر كلامي وغفلت عـن شيء آخر، دلّ قولك هـذا على أنّ المغفول عنه باطن الكلام، وهـو الشيء الآخر. ويدلّ عـلى هذا قوله- سـبحانه-: «فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنـا وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيا ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِن الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُـوَ أَعْلَـمُ بِمَنِ اهْتَدى»[1]. حيـث يتحصّل منه أنّ ذكر اللّه سـبحانه هو السبيل إليه، و التوليّ عنه ضلال عن سبيله، و أنّ ذكره- سبحانه- لا يحصل إلّا بالإعـراض عن الحيـوة الدنيا، وأنّ المعرض عن ذكـره إنّما يبلغ علمه الحيوة الدنيا لا يتجاوزه إلى غيره الحاصل بالذكر، فهناك شيء غير الحيوة الدنيا، وفي طوله، ربمّا بلغه العلم وربمّا وقف دون الحيوة الدنيا".[2]

هذا من حيث العلاقة بين الدنيا والآخرة، ولكنْ هناك أمر آخر أيضًا يعتبر مـن المهمّات، وهـو العلاقة بين السـير والحركة الدنيويّـة والوصول إلى الآخـرة، وبعبارة أخرى، هل الآخرة هي مرحلة يصل إليها البشر بحركتهم، بحيث تتبدّل الأرض غير الأرض أم أنَّ الانتقال إلى الآخرة هو "طفرة"، أي

1 - النجم/ 29- 30.

2 - طباطبايى، محمد حسـين، رسـالة الولاية، 1جلد، موسسـه اهـل البيت (عليهم السلام) - ايران - قم، چاپ: 1، 1360 ه.ق.، صفحة 107- 108.

على حين غرّة مِن الوقت تتفجّر الدنيا وتسيّر الجبال وتسجّر البحار فتقع الساعة وينتقل الجميع إلى عالم الآخرة؟

وهذا الأمر يجعلنا ننبّه على أنَّ القيامة التي تعني الانتقال إلى الآخرة تارة تقال على القيامة الفرديّة للشخص بعد موته، وأخرى تقال على القيامة الكبرى لكلّ العالم، والقيامة الكبرى هي محلّ سؤالنا الأخير، فهل وقوع القيامة الكبرى هو انتهاء لعالم الدنيا على نحو الطفرة أم هناك حركة مؤدّية إلى القيامة؟

هذه الأبحاث تعتبر مِن الأبحاث المهمّة في مسائل المعاد، والتي ترتبط بمجال بحثنا في هذا الكتاب الذي بين أيدينا.

ب - موقع القضيّة المهدويّة مِن الرؤية الكونيّة بخصوص المعاد

إنّنا إذا التزمنا – بناء على الأسئلة التي طرحناها سابقًا- بالمبادئ الآتية:

1 - إنَّ العلاقة بين الدنيا والآخر هي علاقة طوليّة ارتقائيّة وليست علاقة انتقاليّة عرضيّة.

2 - إنَّ القيامة هي انتقال لعالم الآخرة بحيث يكون الانتقال ليس مِن قبيل الطفرة بل مِن قبيل تمهيد الأسباب للانتقال بالعالم إلى الآخرة.

3 - إنَّ القيامة الكبرى كما تشمل الأفراد كذلك تشمل الأمم والجماعات، أي الشخصيّات الاجتماعيّة لا فقط الشخصيّة الفرديّة.

إذا التزمنا بهذه الأصول والمبادئ وأثبتناها مِن باب العقل وما تشير إليه النصوص الدينيّة في خصوص مسألة المعاد، ينفتح أمامنا باب الربط بين المجتمع المهدوي والسير إلى الآخرة؛ لأنَّ الظهور وتشكيل المجتمع المهدوي سيكون حلقة مِن حلقات السير البشري العام منذ آدم وصولاً

إلى القيامة الانتقال إلى الآخرة، وبتعبير آخر، يصبح الأمر في رؤيتنا الكونيّة أنَّ ظهور الإمام المهدي عليه السلام وتشكيل المجتمع المهدوي، هو أحد الضرورات التي ترتقي بالبشريّة إلى مرحلة لاحقة بحيث ينتقلون ويتقرّبون بسبب قيام هذا المجتمع خطوة بل خطوات إلى العالم الآخر، وفي هذا المجال روايات لافتة مِن قبيل الروايات التي تتحدّث عن أيام الله تعالى.

وبناء عليه، إنَّ يوتوبيا المهدويّة، أو المجتمع المهدوي المثالي، يُعدّ حلقة مِن حلقات السير المعنوي والجوهري للحياة الإنسانيّة مِن المادّة إلى عالم المعنى والتجرّد، وهو عالم الآخرة، ويلي الظهور الرجعة في الدنيا، وهذا المعنى نجد له إشارات – كالصريحة- في كلمات جملة مِن الأعلام، ولعلّ مِن أصرح مَن ذكر هذا الأمر العلاّمة الطباطبائي في تفسيره حيث يقول:" إنَّ يوم الرجعة مِن مراتب يوم القيامة، وإنْ كان دونه في الظهور لإمكان الشرّ والفساد فيه في الجملة دون يوم القيامة، ولذلك ربمّا ألحق به يوم ظهور المهدي (ع) أيضًا لظهور الحقّ فيه أيضًا تمام الظهور وإنْ كان هو أيضًا دون الرجعة، وقد ورد عن أئمّة أهل البيت: «أيام الله ثلاثة: يوم الظهور ويوم الكرة ويوم القيامة»، وفي بعضها: «أيام الله ثلاثة: يوم الموت ويوم الكرة ويوم القيامة»، وهذا المعنى أعني الاتحاد بحسب الحقيقة، والاختلاف بحسب المراتب هو الموجب لما ورد مِن تفسيرهم (ع) بعض الآيات بالقيامة تارة وبالرجعة أخرى وبالظهور ثالثة، وقد عرفت ممّا تقدّم مِن الكلام أنَّ هذا اليوم ممكن في نفسه بل واقع، و لا دليل مع المنكر يدلّ على نفيه".[1]

1 - العلاّمة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، الجزء 2، صفحة 109.

خاتمة

في هـذا الفصـل حاولنـا رسـم إطار عـام لموقـع القضيّـة المهدويّة، وبالخصـوص مسـألة المجتمع المهـدوي في الرؤية الكونيّة الإسـلاميّة، حيث تبيّن ممّا سـبق أنَّ المجتمع المهدوي تارة يُنظر إليه كقضيّة ومسـألة ترتبـط باقتضـاءات الصفات الإلهيّة وما يلزم مِن معرفتنـا لله تعالى، وتارة ثانية ترتبط بمعرفتنا للإنسان ونفسه، وبالخصوص الإنسان الكامل ووظيفته تجاه البشريّة، والتي تصل- أي هذه الوظيفة- إلى أوجها في المجتمع الذي نسمّيه المجتمع المهدوي، وتارة ثالثة ترتبط بمسألة المعاد والعالم الآخر، حيث يشـكّل المجتمع المهدوي أحد حلقات السـير الضروري للبشريّة نحو هذا العالم.

المبحث الثاني:
المجتمع المثالي المهدوي في النصوص الدينيّة

تأخذ النصوص الدينيّة دورًا بارزًا ومحوريًّا في صياغة الوعي الإسلامي تجاه أيّ قضيّة مِن القضايا، فيمكننا أنْ ندّعي دون مبالغة أنَّ للنصّ الديني في حياة المسلمين دورًا فاعلاً في إنتاج الذهنيّة والشاكلة المفهوميّة والمعنويّة تجاه القضايا المرتبطة بحياة المسلمين ورؤاهم، وأنَّ صناعة وتوليد الفكر تاريخيًّا كان على مائدة القرآن والنصوص الصادرة عن أئمّة وقادة الدين، حتّى إنَّ الفلسفة الإسلاميّة التي تعتمد مِن حيث المنهج نموذجًا برهانيًّا عقليًّا بالأصالة، لم تكن بمنأى عن الاستفادة والاستزادة مِن النصوص الدينيّة، إنْ مِن جهة تغذية الذهن الفلسفي الإسلامي بالافتراضات المسبقة للعقل البرهاني، بمعنى أنَّ النصّ الديني قد يطرح النتيجة الصادقة على لسان المعصوم عليه السلام، فيفتح بذلك الطريق أمام العقل ليرتّب ويستكشف المقدّمات العقليّة لهذه النتيجة، أو مِن جهة توجيه هذا العقل نحو أساليب الاستدلال والبرهنة، إلى غير ذلك مِن التبادل المعرفي بين النصّ والعقل الفلسفي، والأمر أجلى وأوضح عند المتكلّمين والعرفاء الأصيلين، حيث إنَّ الاستفادة مِن النصوص القرآنيّة والدينيّة الأخرى، كان واضحًا لمن راجع كتبهم وتصنيفاتهم[1].

1 - لمعرفة مزيد مِن التفاصيل حول هذه القضيّة يراجع (باللغة الفارسيّة): السيد يدالله يزدانبناه، مختصات حكمت متعاليه، انتشارات آل أحمد (ص)، قم- إيران، 1399 هجري شمسي.

في هذا الفصل، نستعرض النصوص الدينيّة التي تساهم في استكشافنا لوعي "المعنى" تجاه آخر الزمان وقضيّة المجتمع المهدوي الأمثل عند المسلمين، لا سيّما الإماميّة، ونقترح تقسيم البحث إلى ثلاثة أقسام، يرتبط القسم الأوّل ببيان هذه القضيّة في القرآن الكريم، والقسم الثاني يرتبط بالنصوص الخاصّة في نهج البلاغة، وأخيراً نخصّص القسم الثالث للنصوص العامّة المرتبطة بالمجتمع المهدوي في سائر مصادر الحديث.

● أوّلاً: القرآن والسنن التاريخيّة وغاية العالم

القرآن ليس كتابًا تاريخيًّا أو كتابًا علميًّا بالمعنى الأكاديمي للكلمة، بل هو كتاب هداية بالدرجة الأولى كما عرّف نفسه، ولذلك فالقضايا التي يطرحها في آياته الكريمة، هي آيات ترتبط بتحقيق الهداية للإنسان، ونقصد بالهداية بيان الطريق الذي على الإنسان والمجتمع أنْ يسلكه حتّى يصل إلى الغاية التي تليق به مِن حيث إنسانيّته واجتماعه.

والمعارف القرآنيّة كثيرة مِن حيث الموضوعات، فبعضها عقائدي يبيّن المعارف التوحيديّة والأسماء والصفات الإلهيّة، وبعضها مرتبط ببيان أصول التشريع للحياة الإنسانيّة بعمومها - الفردي والاجتماعي- وبعضها مرتبط بالنفس الإنسانيّة وملكاتها وبيان منظومة القيم والأخلاق التي لا بدّ أنْ يتّصف بها الإنسان للرقيّ إلى أعلى مدارج الكمال المعنوي.

ومِن القضايا التي تعرّض لها القرآن، قضايا حياة الأمم والمجتمعات البشريّة، صعودًا وهبوطًا، وبيان حال المستكبرين والفراعنة وحال الشعوب والجماعات المختلفة، ونظر إلى هذه الأمور تارة نظرة اعتبار وموعظة،

حيث حثّ المسلمين على أخذ العبرة مِن الأمم السابقة، وفي هذا إشارة صريحة على أنَّ السنن التاريخيّة حاكمة على سلوك الأمم والمجتمعات وإلّا لم يكن هناك معنى للاعتبار وأخذ الموعظة، وبعبارة أخرى، إذا كان كفر أو فسق مجتمع مِن المجتمعات القديمة سببًا بأنْ يختلّ نظامها الأخلاقي وبالتالي المسلكي، فيشيع الفقر والعلاقات المدمّرة، فطلب أخذ العبرة مِن هذا الأمر هو قول بأنّكم أيّها المسلمين لو سلكتم هذا المسلك الذي سلكته هذه الأمّة القديمة، فستصلون إلى النتيجة عينها، وهذا تصريح بوجود القوانين الحاكمة على سير المجتمعات.

وتارة أخرى كان طرح قضايا حياة الأمم ليبيّن القرآن أنَّ للمجتمع البشري حياة واقعيّة وشخصيّة حقيقيّة، كشخصيّة الإنسان الفرد، فيجري على المجتمع البشري ما يجري على الفرد، مِن كون له استعداد للكمال الخاصّ به وأنَّ له مسارًا خاصًّا لا بدّ أنْ يسلكه حتّى يصل إلى هذا الكمال، ومِن هنا يتصدّر بحث الغاية للمجتمع البشري العام، وأنَّ القرآن يبشّر بانتهاء حركة البشر في حركة تقدميّة إلى منتهى يشكّل "الشاكلة النهائيّة" المرسومة له في العناية الإلهيّة الأزليّة، وهذا بالتحديد هو محلّ كلامنا حول "المجتمع المهدوي المثالي" حيث إنّنا نعتقد أنَّ المجتمع الذي سيقيمه الإمام عليه السلام، هو المجتمع الذي سيسير نحو الغاية النهائيّة الكاملة للمجتمع.

وقد عالج السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر هذه القضايا، ويذكر في طيّات بحثه "نحن في القرآن الكريم نلاحظ أنّ هذه الحقيقة، حقيقة أنّ للتاريخ سننًا، أنّ الساحة التاريخيّة عامرة بسنن كما عمّرت كلّ الساحات

الكونيّة الاخرى بسنن، هذه الحقيقة نراها واضحة في القرآن الكريم، فقد بُيّنت هذه الحقيقة بأشكال مختلفة وبأساليب متعدّدة في عدد كثير مِن الآيات: بُيّنت على مستوى إعطاء هذا المفهوم نفسه بالنحو الكلّي: إنّ للتاريخ قوانين.

وبيّنت هذه الحقيقة في آيات اخرى على مستوى عرض هذه القوانين وبيان مصاديق ونماذج وأمثلة مِن هذه القوانين التي تتحكّم في المسيرة التاريخيّة للإنسان.

وبيّنت في سياق آخر على نحو تمتزج فيه النظريّة مع التطبيق، أي بُيِّنَ المفهوم الكلّي وبُيِّنَ في إطار مصداقه.

وفي آيات أخرى حصل الحثّ الأكيد على الاستفادة مِن الحوادث الماضية وشحذ الهمم لإيجاد عمليّة استقراء للتاريخ، وعمليّة الاستقراء للحوادث- كما تعلمون- هي عمليّة علميّة بطبيعتها تريد أنْ تفتّش عن سنّة، عن قانون، وإلّا فلا معنى للاستقراء مِن دون افتراض سنّة أو قانون. إذًا، هناك ألسنة متعدّدة درجت عليها الآيات القرآنيّة في مقام توضيح هذه الحقيقة وبلورتها."[1]

وأوّل قضيّة يمكن طرحها – قرآنيًّا- في هذا المجال، هو نفي الحركة العبثيّة للتاريخ الإنساني العام، وأنَّ له حركة مغيّاة – أي لها غاية-، وبعد ذلك يتمّ طرح معالم هذا المجتمع الإنساني الكامل وعناصره المحوريّة

1 - السيّد محمّد باقر الصدر، المدرسة القرآنيّة (موسوعة السيّد الشهيد الجزء 19)، مركز الأبحاث التخصصيّة للشهيد الصدر، قم – إيران، 1421 ه، صفحة -53 54.

مِـن قبيل إخـراج الأرض خيراتها، ومحوريّة البعـد المعنوي الحاكم على المجتمع وغير ذلك.

تعتـبر قضيّـة الغايـة في حركـة التاريـخ والمجتمعات مِـن المفردات والمسـائل التي لها بعد عقائدي وفلسفي، فالمجتمعات في الحقيقة تسير وتتشكّل هويّاتها وأنساقها وفق فعل "إرادي" هو فعل البشر الذين يشكّلون هـذا التكتّل الاجتماعي، وفعل البـشر الإرادي تابع لتصوّراتهم ومعارفهم ومحرّكاتهـم الخياليّة والعقليّـة وغيرها، وبالتالي فطـرح وجود غاية وفق سـنن وقواعد، يجعل الباحث في أوّل وهلة أمـام تناقض الإرادة مِن جهة والجـبر التاريخي مِن جهة أخـرى، بعبارة ثانية، كيـف يمكن الجمع بين وجـود غاية لحركة النـاس وبالتالي المجتمعات بحيـث تكون هذه الغاية خارجة عن إرادتهم وبين كون هذه الحركة إراديّة بحيث تكون غاية السـير ذاتيّة وداخليّة في نفوس البشر وهم مَن يحدّدها؟

في باب سير المجتمعات البشريّة يذكر الله تعالى هاتين القضيّتين:

1 - إحداهـما: نسـبة فعل الأمم إليهـا حقيقة وأنّها مسـؤولة عن أفعالها وليست مجبرة على ذلك:

قَالَ اللَّهُ جَلَّ في عُلاه: ﴿**وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ الأنعام (108).

قَالَ اللَّهُ جَلَّ وعَلَا: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ الأعراف (34).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ**

بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يونس (47).

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: **﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾** هود (98).

قَالَ اللَّهُ جَلَّ وعَلَا: **﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾** الإسراء (71).

حيث يظهر من هذه الآيات أنَّ لكلّ أمّة منسجمة فيما بينها، بحيث لها هويّتها وشاكلتها الثقافيّة والعقليّة والفكريّة الخاصّة، لها هويّة عند الله تعالى، بحيث يحاسبها وفق هذه الهويّة التي اختارتها لنفسها ولها إمامها وقائدها الذي يرعى ويحمي هذه الشاكلة والهويّة، وبالتالي حساب الأمم شاهد على المسؤوليّة الاجتماعيّة الخاصّة لكلّ أمّة، ولا جبر عندئذ.

2 - ظهور أمر الله تعالى، وعدم حصول غلبة أهل الشرك والظلم في عاقبة الأمور:

قَالَ اللَّهُ جَلَّ وعَلَا: **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾** التوبة (33).

قَالَ سُبْحَانَهُ: **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾** الفتح (28).

قَالَ اللَّهُ جَلَّ في عُلاه: **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾** الصف (9).

قَالَ تَعَالَىٰ: **﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ**

مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ الإسراء (7).

قَالَ اللَّهُ جَلَّ وعَلَا: **﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾** القصص (83).

قَالَ اللَّهُ جَلَّ في عُلاه: **﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾** القصص (5).

فهـذه الآيات وغيرها تقع في سـياق وعد الله تعـالى في "آخر الزمان"، وهو وعد ظهور أمر الله تعالى بأنَّ جولات أهل الباطل والظلم لن تدوم بل لها نهاية وأجل اجتماعي تاريخي، حتّى يسـتحكم في النهاية – وبعد سير مرير- أمر المستضعفين في الأرض.

فإذًا، نحن أمام مشهد يعكس هاتين المسألتين، دون أنْ يكون هناك جبر ولا تفويض، وبيان هذه القضيّة أنَّ أهل الباطل والظلم لن يكونوا مجبرين على ترك ظلمهم عنوةً بل إنَّ الظلم بطبيعته آبٍ وممانع لأنْ يكون ذا طبيعة مسـتديمة، بل هو مثله كمثل الماء الذي يُسخَّن لعروض النار عليه، فيأخذ منهـا حرارة ما، ولكنَّ طبيعة الماء متنافية مع التسـخّن الذاتي، إذ سـيصل الأمـر في آخره إلى أنْ يطـرد الماء هذه الحرارة بشـكل طبيعي؛ لأنَّ للماء طبيعة غير حارة، وإنْ كان لحرارته وجود فبسبب عروض خارجي، وكذلك الأمر بالنسـبة للظلم والفساد، فهو أمر عارض على التكوين الأرضي، ولا يمكن أنْ يدوم وأنْ يُكتب له الاسـتمرار، هذا هو التصوير القرآني للفسـاد والظلم:

قَالَ سُبْحَانَهُ: **﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾** المجادلة (21).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ الإسراء (81).

قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ الأنبياء (18).

قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ النّور (39).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يوسف (21).

وقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ النّور (55).

والمتحصّل مِن ذلك كلّه – كما يقول العلاّمة الطباطبائي-: «أنَّ الله سبحانه يعِد الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات أنْ سيجعل لهم مجتمعًا صالحًا خالصًا مِن وصمة الكفر والنفاق والفسق، يرث الأرض، لا يحكم في عقائد أفراده عامّة ولا أعمالهم إلاّ الدين الحقّ، يعيشون آمنين مِن غير خوف مِن عدو داخل أو خارج، أحرارًا مِن كيد الكائدين وظلم الظالمين وتحكّم المتحكّمين.

وهذا المجتمع الطيّب الطاهر على ما له مِن صفات الفضيلة والقداسة لم يتحقّق ولم ينعقد منذ بعث النبيّ صلّى الله عليه وآله إلى يومنا هذا، وإنْ انطبق فلينطبق على زمن ظهور المهدي (ع) على ما ورد مِن صفته في الأخبار المتواترة عن النبيّ ص وأئمّة أهل البيت (ع)، لكنْ على أنْ يكون الخطاب للمجتمع الصالح لا له (ع) وحده".[1]

إذا تبيّن هذا الأمر، فإنَّ المجتمع المهدوي هو المجتمع الذي يمكن أنْ نعبّر عنه بالبيان الآتي: إنَّ طبيعة الباطل طبيعة نفاديّة ومنتهية، بخلاف طبيعة الحقّ التي لها ذاتيّة البقاء والاستمرار وعدم الأفول، ومهما كان نور الحقّ خافتًا، فلا يمكن لأكوام مِن الظلمة أنْ تطفئه، فالنور لا يصارعه الظلام، وبذلك فإنَّ الحقّ هو النور الذي ذاته الظهور والتحقّق، والباطل ليس إلّا الانكفاء والاضمحلال، وبالتالي فإنَّ تراكم النور وتشكّله، هو مقتضى الرحمة الإلهيّة والعناية والجود، وأمّا الظلم والفساد فهي مظاهر آنيّة ومحدودة في إطارها الزماني والمكاني مهما علا صراخها، هذا ما يمكننا أنْ نأخذه مِن مشهد التاريخ ونهايته في القرآن.

● ثانيًا: نهج البلاغة وتصوير المجتمع المثالي

القضيّتان اللتان ذكرناهما سابقًا، أعني: قضيّة المحدوديّة الذاتيّة للظلم والفساد والباطل، وقضيّة حتميّة ظهور أمر الله تعالى والحقّ والعدل، مِن القضايا التي أخذت مأخذًا في بيانات وخطابات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

1 - العلّامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، 15: 155.

فأمّـا بالنسـبة للقضيّة الأولى، فإنَّ مـا نجده من الظلم والفسـاد هو من الأمور ذات "العمر القصير" في هندسة الوجود، ونورد فيما يلي نموذجين من ذلك:

* «فَاعْتَـبِرُوا بِمَـا أَصَابَ الأُمَمَ الْمُسْـتَكْبِرِينَ من قَبْلِكُمْ ـ مِـن بَأْسِ اللَّه وصَوْلَاتِـه ووَقَائعه ومَثُلَاته ـ واتَّعِظُوا بمَثَاوِي خُدُودِهِـمْ ومَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ ـ واسْـتَعِيذُوا باللَّه من لَوَاقِحِ الْكِبْرِ ـ كَمَا تَسْـتَعِيذُونَه من طَوَارِقِ الدَّهْرِ فَلَوْ رَخَّـصَ اللَّه فِي الْكِبْرِ لأَحَدٍ من عِبَادِه ـ لَرَخَّصَ فيه لِخَاصَّةِ أَنْبِيَائِه ـ وأَوْلِيَائِه ولَكِنَّه سُـبْحَانَه كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَابُرَ ـ ورَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ ـ فَأَلْصَقُوا بِالأَرْضِ خُدُودَهُمْ ـ وعَفَّرُوا فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ ـ وخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ ـ»[1]

* «واحْـذَرُوا مَا نَزَلَ بِالأُمَمِ قَبْلَكُمْ ـ من الْمَثُلَاتِ بِسُـوءِ الأَفْعَالِ وذَمِيمِ الأَعْمَالِ ـ فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ والشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ ـ واحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ. فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَالَيْهِمْ ـ فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ به شَـأْنَهُمْ ـ وزَاحَـتِ الأَعْدَاءُ لَه عَنْهُمْ ـ ومُـدَّتِ الْعَافِيَةُ به عَلَيْهِمْ ـ وانْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَه مَعَهُمْ ووَصَلَتِ الْكَرَامَةُ عَلَيْه حَبْلَهُمْ ـ من الاجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ واللُّزُومِ لِلأُلْفَةِ ـ والتَّحَـاضِّ عَلَيْهَا والتَّوَاصِي بِهَـا ـ واجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ وأَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ ـ من تَضَاغُنِ الْقُلُوبِ وتَشَـاحُنِ الصُّدُورِ ـ وتَدَابُرِ النُّفُوسِ وتَخَاذُلِ الأَيْـدِي وتَدَبَّرُوا أَحْـوَالَ الْمَاضِينَ من الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُـمْ ـ كَيْفَ كَانُوا فِي حَـالِ التَّمْحِيصِ والْبَلَاءِ ـ أَلَمْ يَكُونُـوا أَثْقَلَ الْخَلَائِقِ أَعْبَاءً ـ وأَجْهَدَ الْعِبَادِ

1 - أمر المؤمنين عليه السلام، نهج البلاغة، إعداد: الشريف الرضي، تحقيق: صبحي الصالح، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، 1: 290.

بَـلاَءً وأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالاً ـ اتَّخَذَتْهُمُ الْفَرَاعِنَةُ عَبيداً فَسَـامُوهُمْ سُـوءَ الْعَذَابِ وجَرَّعُوهُمُ الْمُرَارَ فَلَمْ تَبْرَحِ الْحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الْهَلَكَةِ وقَهْرِ الْغَلَبَةِ ـ لاَ يَجِدُونَ حِيلَةً فِي امْتِنَاعٍ ولاَ سَبِيلاً إِلَى دِفَاعٍ ـ حَتَّى إِذَا رَأَى اللَّه سُبْحَانَه ـ جِـدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الأَذَى فِي مَحَبَّتِه ـ والاحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوه من خَوْفِه ـ جَعَـلَ لَهُمْ مِن مَضَايِقِ الْبَـلاَءِ فَرَجاً ـ فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَـكَانَ الذُّلِّ والأَمْنَ مَـكَانَ الْخَوْفِ ـ فَصَارُوا مُلُوكاً حُكَّامـاً وأَئِمَّةً أَعْلاَماً ـ وقَدْ بَلَغَتِ الْكَرَامَةُ من اللَّه لَهُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ الآمَالُ إِلَيْه بِهِمْ. فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الأَمْـلاَءُ مُجْتَمِعَـةً ـ والأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً والْقُلُوبُ مُعْتَدِلَـةً ـ والأَيْدِي مُتَرَادِفَةً والسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً ـ والْبَصَائِرُ نَافِذَةً والْعَزَائِمُ وَاحِدَةً ـ أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَاباً فِي أَقْطَارِ الأَرَضِينَ ـ ومُلُوكاً عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ ـ فَانْظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْه فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ ـ حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ وتَشَـتَّتِ الأُلْفَةُ ـ واخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ والأَفْئِـدَةُ ـ وتَشَـعَّبُوا مُخْتَلِفِـينَ وتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ ـ وقَدْ خَلَـعَ اللَّه عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِه ـ وسَـلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِه وبَقِيَ قَصَـصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبَراً لِلْمُعْتَبِرِينَ.»[1]

وهـذا الـكلام يظهر منه عـلى وجهـه الصريح أنَّ علّـة الـدوام والبقاء الاجتماعيـين هو الحـقّ والصدق وحسـن الإيمـان والاعتـدال النفسي والفكـري والروحـي، وأنَّ الظلـم والفسـاد كالعلّة للزوال وشـتات الأمر والملك، وهو ما كنّا قد أشرنا إليه سابقًا في الآيات القرآنيّة.

أمّـا القضيّة الثانية، أعنـي حياة الحقّ والعدل وأنَّ آخـر الزمان لا يمكن

1 - المصدر نفسه: 295- 296

أنْ يكـون مظهرًا لذلك بحكم جـود الله تعالى وعنايته، فأصرح ما في هذا الباب – في نهج البلاغة- ما ورد في حديث أمير المؤمنين عليه السلام مع كميل، ونحن نورده بطوله ثمّ نعلّق عليه لأهمّيته:

« يَـا كُمَيْلُ هَلَكَ خُزَّانُ الأَمْوَالِ وهُمْ أَحْيَاءٌ ـ والْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ ـ أَعْيَانُهُـمْ مَفْقُـودَةٌ وأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ ـ هَـا إِنَّ هَاهُنَا لَعِلْماً جَمّاً وأَشَارَ بِيَدِه إِلَى صَدْرِه لَوْ أَصَبْتُ لَه حَمَلَةً بَلَى أَصَبْتُ لَقِناً غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْه ـ مُسْـتَعْمِلاً آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا ـ ومُسْـتَظْهِراً بِنِعَمِ اللَّه عَلَى عِبَادِه وبِحُجَجِه عَلَى أَوْلِيَائِه ـ أَوْ مُنْقَاداً لِحَمَلَةِ الْحَقّ لاَ بَصِيرَةَ لَه فِي أَحْنَائِه ـ يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِه لأَوَّلِ عَارِضٍ مِن شُـبْهَةٍ ـ أَلاَ لاَ ذَا ولاَ ذَاكَ ـ أَوْ مَنْهُوماً بِاللَّذَّةِ سَـلِسَ الْقِيَادِ لِلشَّهْوَةِ ـ أَوْ مُغْرَماً بِالْجَمْعِ والادِّخَارِ، ـ لَيْسَا مِن رُعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ ـ أَقْرَبُ شَيْءٍ شَـبَهاً بِهِمَا الأَنْعَامُ السَّـائِمَةُ ـ كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيه.

اللَّهُـمَّ بَلَى لاَ تَخْلُو الأَرْضُ مِن قَائِمٍ لِلَّه بِحُجَّةٍ ـ إِمَّا ظَاهِراً مَشْـهُوراً وإِمَّا خَائِفـاً مَغْمُوراً ـ لِئَلاَّ تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّه وبَيِّنَاتُـه ـ وكَمْ ذَا وأَيْنَ أُولَئِكَ أُولَئِكَ واللَّـه الأَقَلُّونَ عَدَداً ـ والأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّه قَـدْراً ـ يَحْفَظُ اللَّه بِهِمْ حُجَجَه وبَيِّنَاتِـه حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُـمْ ـ ويَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْـبَاهِهِمْ ـ هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ ـ وبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ واسْتَلاَنُوا مَا اسْتَوْعَرَه الْمُتْرَفُونَ ـ وأَنِسُـوا بِمَا اسْـتَوْحَشَ مِنْه الْجَاهِلُونَ ـ وصَحِبُـوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الأَعْـلَى ـ أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّه فِي أَرْضِه والدُّعَاةُ إِلَى دِينِه ـ آه آه شَوْقاً إِلَى رُؤْيَتِهِمْ ـ انْصَرِفْ يَا كُمَيْلُ إِذَا شِئْتَ.»[1]

1 - المصدر نفسه: 496- 497.

ويظهر مِن هذا الحديث، أمور عديدة:

1 - إنَّ العلـم والمعرفـة بالله تعـالى، والتي هي الشرف الـذي يتميّز به الإنسـان عن سـائر الكائنات، لا يمكن أنْ يفنى ويموت ذكره في الأرض، فهذا خـلاف العناية الأزليّة للـه تعالى، ومِن هنا ذكر أمـير المؤمنين عليه السلام في هذا الحديث على ما روي عنه، أنَّ الأرض لا تخلو مِن حجّة.

2 - إنَّ بقـاء أهل الحقّ والمعرفة، هـو فرع عدم إمكان بطلان بيّنات الله تعالى، فالحجج والمعـارف الأصيلة التي بثّها الله تعالى في قلوب الأولياء، لا يمكن أنْ تنطفئ في يوم مِن الأيام، بل لا بدّ أنْ يستمرّ حبل المعرفة الإلهيّة المتمثّل بمعرفة الأئمّة والمعصومين مستمرًّا، ولو اقتضى هذا الأمر غيبة الحامل للعلم والمعارف.

3 - إنَّ أئمّـة الدين وحججه، لهم غايـة هي إيداع هذه المعارف والعلوم التي بها يستكمل الإنسان في مدارج الكمال في قلوب أمثالهم، فلا تنقطع بذلك سلسلة الحقّ والحقيقة.

هذا يشـير إلى أنَّ أمد الحـقّ لا ينتهي، بخلاف الباطـل الذي كتب الله تعالى له الزهوق والاضمحلال، هذا تمام ما أردنا الإشارة إليه في خصوص نهج البلاغة، وإنْ كان الأمر قابلاً للتوسعة والتفريع أكثر.

● ثالثًا: النصوص المهدويّة وتصوير المجتمع المثالي

النصـوص الواردة في قضيّة المهدويّة وتشـعّباتها كثيرة جـدًا، وقد صُنّفت الكتب قديمًا وحديثًـا التي صبّت جلّ اهتمامها حول جمع وإحصاء ما روي عن النبيّ وآله عليهم السلام في هذا المجال، ولكنْ لا بدّ مِن الالتفات إلى أنَّ الاعتماد على النصوص والاسـتناد إليها، لا يمكن أنْ يكون عبثيًّا بحيث يأخذ

الباحث أو القارئ أيّ نصّ مِن النصوص ويبني عليه اعتقاداته أو أفكاره، ولذا وضع علماؤنا الأجلاّء ضوابط موضوعيّة لقبول الروايات الموثّقة، والتي يمكن الركون إليها أو لرفض تلك التي تعاني خللاً مانعًا مِن قبولها، ولهذه القضيّة مجال واسع للبحث، ولكنْ ما أردنا بيانه أنّنا في هذا القسم مِن البحث اعتمدنا التدقيق في الأسانيد لنخرج جملة مِن النصوص التي يمكن القول بأنّها معتبرة وموثّقة - لا أقلّ على بعض مباني الفقهاء والمدقّقين العظماء في عصرنا- لنستخرج منها ما نريده مِن بيان الأطروحة الإماميّة لبعض أبعاد اليوتوبيا المهدويّة. وقبل البدء بذلك لا بدّ مِن طرح ملاحظتين:

الملاحظة الأولى: قد يسأل شخص أنّنا في القسم السابق وعند البحث عن الرؤية المهدويّة في نهج البلاغة لم ندقّق في الأسانيد كما هي الحال هنا، وجوابنا على ذلك أنَّ المقدار الذي وجدناه في نهج البلاغة مِن الطرح المتعلّق بمشهد آخر الزمان، قليل نسبيًّا وهو متوافق مع الآيات القرآنيّة، ولم يطرح المسألة بتفاصيلها التي نجدها في سائر النصوص والروايات، ولذا أغنانا صحّة المضمون المتوافق مع الآيات القرآنيّة والأدلّة والبراهين العقليّة عن البحث في الأسانيد.

الملاحظة الثانية: إنّنا نريد في هذا القسم بيان بعض الأوجه التي أشارت إليها النصوص والمتعلّقة بمشهد آخر الزمان - مشهد ما بعد الظهور المبارك لصاحب العصر عليه السلام- ساعين إلى تحليل وتفسير بعض النصوص، لا مجرّد نقلها، وبعض تلك النصوص وصلت إلى حدّ التواتر والكثرة بحيث يطمئن العقل العادي بأنّه لا يمكن أنْ تكون مِن الروايات الكاذبة، وذلك مثل أنَّ الإمام عليه السلام يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت ظلمًا وجورًا، فهذا المضمون بل هذه الألفاظ بعينها تكاد تكون

كالشمس الساطعة في سماء النصوص والفضاء الحديثي.

الملاحظة الثالثة: اكتفينا عند نقل الحديث عدم ذكر سنده بتمامه، وذلك لعدم الإطالة، موكلين أمر التحقيق في ذلك إلى القارئ بعد الإشارة إلى مصدره في الهامش. وفيما يلي نقسّم البحث إلى مشاهد وجدناها تحكي حال يوتوبيا الظهور في الروايات المعتمدة.

المشهد الأوّل: الأرض تمتلئ عدلا

ذكرنا أنَّ النصوص الواردة بلفظ أنَّ الإمام عليه السلام إذا ظهر «يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت ظلمًا وجورًا» مِن النصوص المتواترة لفظًا، وبالتالي يقطع الباحث بصدور هذا اللفظ بعينه عن المعصومين عليهم السلام، ومِن هنا يمكننا عدّ «امتلاء الأرض عدلاً» المشهد الأوّل الذي يشكّل مشهد عالم الظهور، واليوتوبيا الإسلاميّة التي تتمظهر في المجتمع المهدوي تتميّز بلون «العدل»، والكلام يقع على أمرين:

الأمر الأوّل: في نقل جملة مِن الروايات الصحيحة في هذا المعنى

عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «اَلْمَهْدِيُّ مِن وُلْدِي اسْمُهُ اسْمِي وكُنْيَتُهُ كُنْيَتِي أَشْبَهُ اَلنَّاسِ بِي خَلْقاً وَخُلُقاً تَكُونُ بِه غَيْبَةٌ وَحَيْرَةٌ تَضِلُّ فِيهَا اَلْأُمَمُ ثُمَّ يُقْبِلُ كَالشِّهَابِ اَلثَّاقِبِ يَمْلَؤُهَا عَدْلاً وَقِسْطاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً.»[1]

1 - ابن بابويه محمد بن على. 1395. كمال الدين و تمام النعمة. تهران - ايران: دار الكتب الإسلاميّة، الجزء الأوّل، صفحة 286.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله:" اَلْمَهْدِيُّ مِن وُلْدِي اسْمُهُ اسْمِي وكُنْيَتُهُ كُنْيَتِي أَشْبَهُ النَّاسِ بِي خَلْقاً وَخُلُقاً تَكُونُ لَهُ غَيْبَةٌ وَحَيْرَةٌ حَتَّى تَضِلَّ اَلْخَلْقُ عَنْ أَدْيَانِهِمْ فَعِنْدَ ذَلِكَ يُقْبِلُ كَالشِّهَابِ اَلثَّاقِبِ فَيَمْلَؤُهَا قِسْطاً وَعَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ ظُلْماً وَجَوْراً." [1]

عن عبد العظيم الحسني قال:» قُلْتُ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ اَلْقَائِمَ مِن أَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ اَلَّذِي يَمْلَأُ اَلْأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً" فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ:" يَا أَبَا اَلْقَاسِمِ مَا مِنَّا إِلاَّ وَهُوَ قَائِمٌ بِأَمْرِ اَللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهَادٍ إِلَى دِينِ اَللَّهِ وَلَكِنَّ اَلْقَائِمَ اَلَّذِي يُطَهِّرُ اَللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ اَلْأَرْضَ مِن أَهْلِ اَلْكُفْرِ وَاَلْجُحُودِ وَيَمْلَؤُهَا عَدْلاً وَقِسْطاً" [2]

الأمر الثاني: في تحقيق معنى بسط العدل وامتلاء الأرض به

بعد أنْ تبيّن أنَّ النصوص الدينيّة القطعيّة تشير إلى مصطلح «امتلاء الأرض بالعدل» على أنّه المشهد الذي تتميّز به اليوتوبيا المهدويّة، لا بدّ أنْ نعيد بناء تصوّرنا الإسلامي المتوافق مع العقل الفلسفي والنصّ الديني حول معنى هذا المفهوم، فما هو معنى امتلاء الأرض عدلاً؟ هل هو بمعنى «العدالة الاقتصاديّة» أو التي تسمّى بحسب الاصطلاح المعاصر «العدالة التوزيعيّة»؟ أو هي بمعنى «العدالة الإجرائيّة» في مجال إقامة الحدود والمحاكمات القضائيّة كالاقتصاص مِن القاتل وعدم تهرّب الفاسد مِن المحاسبة أم غير ذلك؟.

1 - المصدر نفسه، صفحة 287.

2 - ابن بابويه محمد بن على. 1395. كمال الدين وتمام النعمة. تهران - ايران: دار الكتب الإسلاميّة، الجزء الثاني، صفحة 377.

لا شـكَّ أنّ مفهوم "العدالة" يشمل هذين المعنيين، ولكنْ إذا نظرنا إلى معطيات الفكر الإسلامي على مستوى العقائد والفلسفة والتفسير وحتّى العرفـان، نجد أنَّ هنـاك أفقًا أرحب وأوسـع للعدالة، وببيـان إجمالي إنَّ صاحب العـصر والزمان عليه السـلام «يكتب له النجـاح في تحقيق هذا الهـدف ونشر العدالة في أنحاء العالم كافّة، وليسـت العدالة التي يفهمها عامّـة الناس والمتمثّلة فقط في بسـط العدل على الأرض لتحقيق الرفاهية للناس، بل العدالة في كافّة المراحل والدرجات الإنسـانيّة. الإنسان إذا ما انحـرف عن جادة الصواب سـواء انحراف عمـلي، أو انحراف روحي، أو انحـراف عقلي، فمعالجـة هذه الانحرافات بالمعنـى الحقيقي هي إيجاد العـدل لدى الإنسـان. فعندما يعود الإنسـان المنحرف خلقيًّـا إلى جادة الاعتدال، فإنَّ ذلك يعني تحقيق العدالة في داخله، وإذا ما طرأ أي انحراف أو سـقم على عقائد الإنسـان، فإنَّ تعديل هذه العقائد المعوجّة والسقيمة والعمل على تصحيحها وجعلها على الصراط المستقيم، يعدّ بسطًا للعدل على صعيد عقل الإنسـان. ففي عصر ظهور المهدي الموعود-- سلام الله عليـه-- الذي ادّخره الله، وبما أنّه لم يتيـسّر لأحد مِن الأوّلين والآخرين - سوى الإمام المهدي الموعود- أنْ يبسط العدل في كلّ العالم"[1].

وبيانه التفصيلي أنَّ الظلم الذي يقابل العدل، يمتدّ في دائرة وجود الإنسان

1 - خمینی، روح‌الله، رهبر انقلاب و بنیانگذار جمهوری اسلامی ایران، صحیفة الإمام(ترجمه عـربی)، 22جلد، موسسـه تنظیم و نشر آثار امام خمینـی (س) - ایران - تهران، چاپ: 1، 1429 ه.ق.، الجزء 12، صفحة 384

ما امتدّت الحقوق اللازمة في عنقه، فحيثما وجد حقٌّ فهناك ظلم يتمثّل في تعدّي هذا الحقّ، وهناك اعتدال وعدل يتمثّل في الاستقامة على طريق الحقّ والحقيقة، وللإنسان مراتب ونشآت متعدّدة في وجوده، فتارة ننظر إلى أفعاله وسلوكيّاته، فتتمظهر بذلك حقوق عليه لله تعالى وللناس وللأرض وللمجتمع، فلله حقّ في العبادة والطاعة، وهو سبحانه جعل الحقّ للناس في عنق الإنسان وحقّ للمجتمع وحقّ للأرض، وعندئذ فتجاوز أيّ حقّ مِن هذه الحقوق العمليّة يسمّى "ظلمًا"، والاستقامة الفرديّة على تأدية هذه الحقوق تسمّى اعتدالاً عمليًّا ومسلكيًّا، وكذا فإنَّ المجتمع - كشخصيّة لها نوع استقلاليّة ولها هويّة خاصّة كما بيّنا سابقًا- له اعتدال وظلم، ومن هنا نجد في القرآن الكريم إشارة إلى هذا المعنى، حيث قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾ النساء (10).

وهناك نشأة ومرتبة أخرى - غير النشأة العمليّة السلوكيّة- وهي مرتبة الأخلاق والقيم الإنسانيّة، والتي لا تكون عادة جزءًا مِن التشريع والتقنين - بوجه مِن الوجوه- بل لها منظومتها الخاصّة، وإنْ شكّلت أساسًا للتشريع والتقنين فيما بعد، ولكنْ هناك ظلم أخلاقي أيضًا بأنْ يجعل الإنسان هيئته الخلقيّة على غير سمت الاعتدال، وبهذا يكون ظالمًا لنفسه ولهيئته الخلقيّة، وبعبارة أخرى، قد يكون الإنسان مؤدّيًا لحقوق الناس والمجتمع والأرض على مستوى العمل والسلوك، ولكنّه يستبطن غلًّا أو حسدًا أو عجبًا أو تكبّرًا، فهذا الإنسان قد خرج عن حدّ الاعتدال في نشأته الأخلاقيّة، وقد أشارت الآيات القرآنيّة إلى ذلك في بعض تعبيراتها عمّا يسمّى "ظلم النفس»، ولهذه النشأة مضافًا إلى ظهورها على المستوى الفردي أيضًا ظهور على مستوى شخصيّة المجتمع، فالمجتمع

الذي يمجّد الكذب أو يضع للتكبّر حظًا مِن المدح والقيمة، ويجعل التواضع نوعًا مِن الخسّــة وما إلى ذلك، هو مجتمع مختلّ على مســتوى هيئته وشاكلته القيميّة، ويسمّى مجتمعًا ظالمًا حائدًا عن طريق الاعتدال بهذا المعنى.

والنشأة الثالثة، هي نشأة الاعتقاد والإيمان، حيث إنَّ مِن الظلم بناء الإيمان والاعتقاد- العقلي أو القلبي- على هيئة تنافر الحقّ الوجودي؛ أي إذا كان وجود الله تعالى حقًّا، فمِن الظلم بناء النفس عقائديًّا وإيمانيًّا وروحيًّا على الكفر والإلحاد والشرك، وجاء هذا المعنى واضحًا في القرآن الكريم حيث قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ لقمان (13). حيث جعل الشرك بالله تعالى ظلمًا.

وقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ**﴾ البقرة (54)، وقَالَ جَلَّ في عُلاه: ﴿**يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ**﴾ النساء (153). فجعل طلبهم رؤية الله تعالى جهرة مِن الظلم؛ لأنَّ الحقّ والحقيقة تعني أنَّ الله تعالى متعالٍ عن الرؤية جهرة.[1]

---

1 - كي لا نطيل، لم ندرج الآيات الظاهرة في هذا الأمر في المتن، ولكنْ نوردها في الهامش: قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ الأنعام (82).

قَالَ اللَّهُ جَلَّ في عُلاه: ﴿**أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ**﴾ الأنعام (157).

قَالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا**﴾ الكهف (57).

وهـذا المعنى الثالـث مِن الاعتدال، أيضًا كما يتجـلّى في البعد الفردي – بإقامـة النفس على التوحيد – يتجلّى أيضًا على مسـتوى الهيئة النفسـيّة والإيمانيّـة والاعتقاديّـة للمجتمـع، فيمكننـا أنْ نقسّـم المجتمعات إلى مجتمعات توحيديّة أو غير توحيديّة بناء على شـاكلتها الباطنة الاعتقاديّة، فنحصل مِن جميع ما مرّ ما يمكن بيانه في الرسم الآتي:

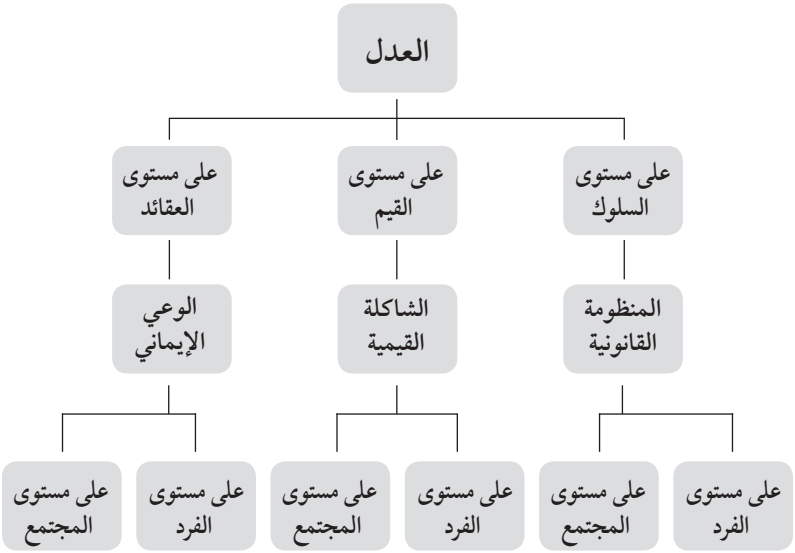

وعندئذ، فإنَّ العدل لا بدّ أنْ يشـمل كلّ هـذه المعاني، ولا بدّ أنْ يكون امتلاء الأرض عدلاً مشتملاً على كلّ هذه الأبعاد التي استقيناها مِن النصّ الدينـي، لا سـيّما القرآن الكريم، ومِن هنا ذكـر أعاظم الحكماء حول يوم الإمـام المهدي أنَّ: «زمان ظهور المهدي عليه السّـلام [...] غاية سـطوع

شمس الحقيقة في وسط سماء الاستقامة الحقيقيّة، ومعدّل النهار الاعتدال الجمعي الكمالي، فيه ظهور نور دين التوحيد الإلهي، وانفلات ظلام الشرك الإبليسي، وانقماع الباطل الوهمي بالكليّة، إذ به يملأ اللّه الأرض قسطًا وعدلاً، بعدما ملئت ظلمًا وجورًا».[1]

المشهد الثاني: الحكم بالواقع لا بالظاهر

تشير بعض النصوص إلى أنَّ المجتمع المهدوي، هو مجتمع لا يمكن فيه إخفاء الجرم والهتك والقبائح مِن الأفعال، بل هو مجتمع يراد به أنْ يكون صافيًا مِن القبائح مِن الأفعال والسلوكيّات، لا على مستوى الظاهر فقط، بل على مستوى الحقيقة. وبعبارة أوضح، إنَّ القانون الإسلامي قائم على استئصال المفاسد الاجتماعيّة التي أقيم عليها بيّنة ودليل ظاهري، كما هو الحال في المحاكم، حيث إنَّ أحدًا لو ادّعى أنَّ شخصًا آخر قد سرق مالاً، فلا يحكم على المدّعى عليه بالسرقة إلّا في حال الإتيان بالبيّنة التي تدينه، فإنْ لم يؤت بها، حُكم ببراءة المدّعى عليه، وإنْ كان بحسب الحقيقة سارقًا، وهذا ما يسمّى حكم بالظاهر وبالبيّنات، وهذا الأمر جرى عليه الأوصياء عليهم السلام، فهو يحمي الظاهر الذي عليه الناس، دون تجلية وإظهار للباطن والحقيقة – بالمعنى الذي ذكرناه- أمّا في زمن المهدويّة، فقد أشارت بعض النصوص الموثّقة والمعتبرة إلى أنَّ الإمام

1 - صدر الدين شيرازى محمد بن ابراهيم. 1366. تفسير القرآن الكريم. قم - ايران: بيدار، الجزء السادس، صفحة -50 51.

المهدي عليه السلام يسعى لقطع مادّة الفساد ولو لم تأت عليها البيّنات والشهادات، أي وإنْ لم يكن لها حكم في الظاهر يدين مرتكبها، فقد ورد عن أَبِيُ عَبْدِ اَللَّه عَلَيْه السَّلاَمُ: دَمَان فِي اَلْإِسْلاَمِ حَلاَلٌ من اَللَّه عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَقْضِي فِيهِمَا أَحَدٌ بِحُكْمِ اَللَّه حَتَّى يَبْعَثَ اَللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ - اَلْقَائِمَ من أَهْلِ اَلْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ فَيَحْكُمُ فِيهِمَا بِحُكْمِ اَللَّه عَزَّ وَ جَلَّ لاَ يُرِيدُ عَلَى ذَلِكَ، بَيِّنَةً اَلزَّانِي اَلْمُحْصَنُ يَرْجُمُهُ وَمَانِعُ اَلزَّكَاةِ يَضْرِبُ رَقَبَتَهُ».[1]

وهذه الرواية، وإنْ كانت في مورد "الزنا ومنع الزكاة"، إلّا أنَّ بعض المحدثين ذكر ما لفظه "ورد به الأخبار المتواترة بأنّه إذا ظهر القائم صلوات الله عليه يحكم بحكم آل داود ولا يسأل بيّنة"[2].

المشهد الثالث: تخرج الأرض بركاتها

المشهد الثالث من مشاهد اليوتوبيا المهدويّة هو أنَّ الأرض تخرج بركاتها وكنوزها، وجاء في بعض النصوص «عَنْ أَبِي أَحْمَدَ مُحَمَّد بْن زِيَاد اَلْأَزْدِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ سَيِّدِي مُوسَى بْنَ جَعْفَر عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ عَنْ قَوْل اَللَّه عَزَّ وَجَلَّ: وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً[3] فَقَالَ عَلَيْه السَّلاَمُ اَلنِّعْمَةُ اَلظَّاهِرَةُ اَلإِمَامُ اَلظَّاهِرُ وَاَلْبَاطِنَةُ اَلإِمَامُ اَلْغَائِبُ فَقُلْتُ لَهُ وَيَكُونُ فِي اَلْأَئِمَّة مِن يَغِيبُ قَالَ: نَعَمْ يَغِيبُ

1 - ابن بابويه محمّد بن علي. 1395. كمال الدين و تمام النعمة، مصدر سابق، الجزء الثاني، صفحة 671.

2 - مجلسی محمد تقي بن مقصود على. 1406. روضة المتقين في شرح مَن لا يحضره الفقيه. Vol. 6. ايران -: بنياد فرهنگ اسلامی كوشانپور.، الجزء 6، صفحة 59.

3 - لقمان: ٢٠.

عَنْ أَبْصَارِ اَلنَّاسِ شَخْصُهُ وَ لاَ يَغِيبُ عَنْ قُلُوبِ اَلْمُؤْمِنِينَ ذِكْرُهُ وَهُوَ اَلثَّانِي عَشَرَ مِنَّا يُسَهِّلُ اَللَّهُ لَهُ كُلَّ عَسِيرٍ وَيُذَلِّلُ لَهُ كُلَّ صَعْبٍ وَ يُظْهِرُ لَهُ كُنُوزَ اَلْأَرْضِ"[1].

ثمّ إنّه يجب أنْ يُعلم أنَّ خروج بركات الأرض له ارتباط بالسلوك الإنساني عليها، فالمجتمع الكافر الذي يكثر فيه الفسق والفجور، ينعكس جفافًا وضيقًا وإمساكًا للأرض في بركاتها وخزائنها، بخلاف الإيمان والاستغفار والاتصال بالله تعالى، وقد أشارت الآيات الكريمة إلى هذه الحقيقة، حيث قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا**﴾ نوح (10-12).

ومِن هنا يمكن اعتبار هذا المشهد مِن مشاهد يوتوبيا المجتمع المهدوي على أنّه نتيجة وحاصل مِن امتلاء الأرض قسطًا وعدلاً.

المشهد الرابع: عالميّة المجتمع المهدوي

مِن مشاهد اليوتوبيا المهدويّة أنَّها عالميّة الانتشار والأثر، وقد وردت في ذلك روايات معتبرة، نورد منها:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «اَلْأَئِمَّةُ بَعْدِي اِثْنَا عَشَرَ أَوَّلُهُمْ أَنْتَ يَا عَلِيُّ وَآخِرُهُمُ اَلْقَائِمُ اَلَّذِي يَفْتَحُ اَللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى يَدَيْهِ مَشَارِقَ اَلْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا».[2]

---

1 - ابن بابويه محمّد بن علي. 1395. كمال الدين و تمام النعمة، مصدر سابق، الجزء الثاني، صفحة 368- 369.

2 - ابن بابويه محمّد بن علي. 1395. كمال الدين و تمام النعمة، مصدر سابق، الجزء الأوّل، صفحة 282.

عن الإمام الصادق عليه السلام: في قَوْلِ اَللَّه عَزَّ وَجَلَّ ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ التوبة (33). فَقَالَ وَاَللَّه مَا نَزَلَ تَأْوِيلُهَا بَعْدُ وَلاَ يَنْزِلُ تَأْوِيلُهَا حَتَّى يَخْرُجَ اَلْقَائِمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَإِذَا خَرَجَ اَلْقَائِمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لَمْ يَبْقَ كَافِرٌ بِاللَّه اَلْعَظِيمِ وَلاَ مُشْرِكٌ بِالْإِمَامِ إِلاَّ كَرِهَ خُرُوجَهُ حَتَّى أَنْ لَوْ كَانَ كَافِراً أَوْ مُشْرِكاً فِي بَطْنِ صَخْرَةٍ لَقَالَتْ يَا مُؤْمِنُ فِي بَطْنِي كَافِرٌ فَاكْسِرْنِي وَ اُقْتُلْهُ.»[1]

وهذا المشهد يمكن اعتباره أيضًا من متفرّعات المشهد الأوّل الذي ورد فيه "يملأ الأرض.." حيث إنَّ المراد من الأرض عندئذ هو ما يشمل كلّ بقاعها، وهذه النصوص أيضًا مؤيّدة لمعنى العدل الشامل للعدالة على مستوى القيم والعقائد، حيث أشارت إلى أنّها تشمل نفي الكفر والجحود من العالم أيضًا.

خاتمة

يظهر من هذا الفصل الذي بسطنا فيه الكلام حول الرؤية الدينيّة النقليّة فيما يتعلّق باليوتوبيا والمجتمع المثالي المهدوي، أنَّ ما يطرحه النقل من القرآن وسائر النصوص الدينيّة – في نهج البلاغة وسائر المتون الحديثيّة- يتطابق مع ما أرشد إليه العقل من كون الشاكلة النهائيّة للمجتمع في آخر الزمان هي شاكلة العدل والاستقامة في الشؤون الإنسانيّة كافّة، وهذا هو غاية العناية والجود الإلهيين في خلق العالم كما دلّ عليه العقل.

1 - ابن بابويه محمّد بن علي. 1395. كمال الدين و تمام النعمة، مصدر سابق، الجزء الثاني، الصفحة 670.

الفصل الثاني:
اليوتوبيا المهدوي في مقابل اليوتوبيات العالميّة

المبحث الأوّل:
أنماط اليوتوبيا وعناصرها

● أوّلًا: المصطلح والبداية

شكّل مصطلح « اليوتوبيا» في الفكر العالمي عمومًا والفكر الأوروبي الغربي خصوصًا إشكاليّة في «التعريف»، حيث نجد أنَّ الكتّاب والباحثين في هذا المجال وجدوا تضاربًا في المعنى المقصود من هذا اللفظ المأخوذ تارة من « يوتوبيا» - بمعنى اللامكان - أو من «أوتوبيا» - بمعنى المكان الجميل-[1]، وكذلك نجد الأمر مماثلاً في تعريبه بالـ"طوباويّة" بالنسبة إلى اللغة العربيّة[2]، ولا نجد من ضرورة للبحث في هذه المسائل الاصطلاحيّة بعد وضوح أصل المقصد الذي يُجمع عليه أغلب الكتّاب اليوتوبيين أو الذين كتب حول الفكر اليوتوبي، إذ إنّهم متّفقون على أنَّ اليوتوبيا هي سرديّة أدبيّة أو فلسفيّة أو اجتماعيّة لتصوير مجتمع متعالٍ من حيث الأزمات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والإنسانيّة.

نعم، إنَّ أوّل مَن استعمل هذا الاصطلاح هو توماس مور(1535) الذي

---

1 - لايمان تاور سارجنت، اليوتوبيا، ترجمة: ضياء رواد، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة- مصر، 2016، صفحة 10.

2 - مجموعة مؤلّفين، اليوتوبيا والفلسفة، الرابطة العربيّة الأكاديميّة للفلسفة، الرباط- المغرب، 2014، صفحة 14.

كتــب كتابه الشــهير بهذا العنــوان، واصفًا جزيرة مثاليّة بنمط أدبي يشــير إلى طبقــات المجتمع وحياته اليوميّة وســائر التفاصيــل الاجتماعيّة التي تســوده، ولكنْ لا شــكَّ عند المراجعة لمباحث الفلســفة بالخصوص أنَّ أصــل التفكير اليوتوبي لم يبدأ مِن توماس مــور، بل هو ضارب في عمق التاريخ الفكــري للبشريّة، فإنَّ «فكرة العالم المثالي أو الفردوس الأرضي أو اليوتوبيا كما صارت تســمّى منذ صاغ تومــاس مور هذه الكلمة، فكرة راودت خيــال الإنســان مِن قديم الزمــان وتناولها الفلاســفة والمفكّرون وقدّموا صورًا مختلفة»[1].

ولكــنْ يبقى الســؤال الذي يكاد يجمع على جوابــه كلّ مَن حلّل ظاهرة الأدب والفكر اليوتوبي، وهو: ما هي أسباب ظهور هذا النمط مِن الكتابة؟

لماذا سعى بعض الكتّاب والفلاسفة لتصنيف كتب ورسائل يصفون فيها مجتمعات مثاليّة؟

الجواب هو:

عدم الرضــا عن الواقــع الموجود، وإطــلاق العنان للخيال الفلســفي والأدبي لاقتنــاص نماذج اجتماعيّة واقتصاديّة تتعــرّى عن النقائص التي ابتُليــت بهــا المجتمعات والدول التــي عاش فيها المفكّر أو الفيلســوف اليوتوبي، وبحسب بعض الكتّاب "لا يمكن فهم التفكير اليوتوبي، قديمه وحديثه، حتّى نضعه في ســياق التطــوّر التاريخي والاجتماعي لنعرف أنَّه

1 - تومــاس مور، يوتوبيــا، ترجمة: أنجيل بطرس ســمعان، الهيئــة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة- مصر، صفحة 13.

كان صرخــة احتجاج على أوضاع وظروف اجتماعيّة ظالمة وفاســدة"[1]، وبعض آخر قال « كلّ أشــكال اليوتوبيا تطرح أســئلة، فهي أســئلة تســأل إنْ كان يمكــن تحســين الطريقة التي نحيا بها، وتجيــب بأنّه يمكن ذلك، ويقارن أغلبهــا بين الحياة الحاليّــة والحياة في اليوتوبيــا، وتوضّح أوجه الخطــأ في الطريقة التــي نحيا بها الآن، وبذلك تقترح مــا ينبغي القيام به لتحسين الأوضاع»[2].

ولكــنْ في الواقــع إنَّ هذا التعميم للكتابــات اليوتوبيّة لا يخلو مِن خلل ولا يســلم مِن النقــد، وخاصّة لو ضممنا – على ما ســيأتي عند التصنيف والترتيب- اليوتوبيات الدينيّة، والتي تجعل اليوتوبيا صورة للمجتمع مرادة مِــن قبل الله تعالى، وهي صورة قبل التجارب الاجتماعيّة التي يعيش فيها المفكّر. وبعبارة أخرى، إنَّ اليوتوبيا الدينيّة التي تستمدّ وجودها مِن الفكر الديني – الأعمّ مِن كونه مِن النصّ أو العقل الفلسفي- ينطلق مِن اليوتوبيا ليحكــم على الواقع الاجتماعي لا العكس، بحيث يكون النفور مِن الواقع الاجتماعــي داعيًا للتفكير في يوتوبيا هي صــورة بديلة عن الواقع، نعم لا يبعــد أنْ يكــون الفكر غير المنطلق مِــن المبدأ المعــرفي الديني كما ذُكر ســابقًا، ولكنْ لا يمكننا استبعاد السرديّات والمشــهديّات اليوتوبيّة الدينيّة عن مسرح الفكر اليوتوبي الإنساني.

---

1 - ماريــا لويزا برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة: عطيّات أبو الســعود، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلســلة عــالم المعرفة)، الكويت، 1997، صفحة 10.

2 - لايمان تاور سارجنت، اليوتوبيا، مصدر سابق، 12.

● **ثانيًا: أنواع تصنيفات الكتابات اليوتوبيّة**

إذا راجعنا الكتب المؤرّخة للفكر اليوتوبي العالمي، أو للكتب نفسها التي تعتبر منابع لليوتوبيات، نجد أنّنا أمام سيل كبير مِن الكتابات التي تتّخذ ألوانًا مِن الأساليب وطرق البيان تارة ومِن المضامين والمناهج تارة أخرى والتطوّر التاريخي ثالثًا، فهذه ثلاثة معايير للتقسيم.

التقسيم الأوّل: التقسيم وفق الأسلوب

نجد أنَّ بعض اليوتوبيات اتّخذت نمطًا أدبيًّا سرديًّا أو حواريًّا لبيان المدينة الفاضلة والمجتمع المثالي الذي يجب أنْ يكون عليه البشر، ومثاله يوتوبيا «توماس مور» القصصيّة لا على نحو الحصر، حيث يذكر في روايته لقاء الرحالة البرتغالي رافايل هيثلوداي بالدولة المثاليّة التي قابلها خلال إقامته مدّة خمس سنوات في جزيرة يوتوبيا.

بينما نجد أنَّ الأدب اليوتوبي اتّخذ مسارًا تجريديًّا فلسفيًّا في بعض الكتابات الأخرى، مثل "آراء أهل المدينة الفاضلة" للحكيم الإسلامي أبي نصر الفاربي، حيث يذكر في هذا الكتاب ابتداءً مباحث حول الله تعالى وأسمائه وصفاته ومِن ثَمَّ النفس وقواها، حتّى يصل إلى المدينة الفاضلة، وأهمّ ركن فيها هو "الإمام الرئيس" ويطرح "مضادّات المدينة الفاضلة"؛ أي أنماط المدن التي هي "ديستوبيا" مقابل "اليوتوبيا- المدينة الفاضلة"، قال "المدينة الفاضلة تضادّها

المدينــة الجاهليّــة، والمدينة الفاســقة، والمدينة المتبدّلــة والمدينة الضالّة"[1]، وســيأتي عند بيان التقسيم وفق المضمون أهمّ ما ذكره في هذا الكتاب.

وثالثًــا نجــد اليوتوبيــا ذات الأســلوب الدينــي في «مدينة اللــه» عند أوغسطين، حيث يقول في مقدّمة المجلّد الثاني لها «إنّنا نسمّي مدينة الله تلك التي يشــهد لها الكتاب المقدّس، بما له من ســلطة إلهيّة قلّدته إيّاها العناية الإلهيّة ففاقت كلّ ما أنجزته ســائر الأمم، وســيطرت على كلّ نوع من القوى العقلية»[2].

ورابعًــا، نجــد أنَّ اليوتوبيــات المعــاصرة والحديثــة هي يوتوبيــات علميّة واجتماعيّة من حيث أسلوبها، كاليوتوبيا البيئيّة أو اليوتوبيا النسويّة في الحركات الاجتماعيّــة المتأخّرة التي يشــهدها عصرنا، بــل إنَّ "اليوم يعــدّ النوع الأدبي الفرعي المســمّى الإيكوتوبيــا أو اليوتوبيا البيئيّة [...] أقــوى تيّار يوتوبي»[3]، وصحيح أنَّ هذه الحراكات الاجتماعيّة – البيئيّة والنسويّة وغيرهما- لم تستعمل مصطلح اليوتوبيا لتوصيف جوهــر حركتها، ولكنّها تحمل على أكتافها عبء تصوير المشهد اليوتوبي المثالي للمجتمع الذي يأملونه، ويكون – كما ذكرنا- ما ينظّرون له نوعًا من مواجهة لواقع غير مرضي عندهم.

1 - أبو نصر الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، دار المشرق، بيروت- لبنان، 1986، صفحة 131.

2 - أوغسطين، مدينة الله، ترجمة: الخورأسقف يوحنّا الحلو، دار المشرق، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية، 2007، الجزء الثاني، صفحة 5.

3 - لايمان تاور سارجنت، اليوتوبيا، مصدر سابق، 37

هذا التقسيم وفق الأساليب لا يهمّ غرضنا الأساسي فيما نريده مِن هذا الكتاب الذي بين أيدينا، ولذلك أوردناه موجزًا، ولعلّه ينفع الكتابات الأدبيّة المقارنة ودراسة ألسنيّات النصوص اليوتوبيّة، ولكنْ حيث كان غرضنا هو بيان المائز الأساسي بين اليوتوبيا المهدويّة وسائر اليوتوبيات، فلا نجد ضرورة لاتخاذ التقسيم وفق الأسلوب والبيان معيارًا لنا، بل إنَّ ما يخدم مشروعنا البحثي هنا هو الجهة المضمونيّة.

التقسيم الثاني: التقسيم وفق التطوّر التاريخي والسياقات السياسيّة

لماذا ساد التقسيم الزمني للكتابات اليوتوبيّة؟ يتّضح ممّا سبق أنَّ أغلب المؤرّخين لليوتوبيات ربط هذا النوع مِن الكتابات بالتطوّر الاجتماعي

والسـياسي الذي يعيشه كاتب النصّ اليوتوبي، ولذا فإنَّ أكثر ما يفيدنا إيّاه التقسـيم الزمني، هو مقارنة التصوّر حول اليوتوبيا مع الظروف الاجتماعيّة والسياسيّة السائدة في زمن النصّ المكتوب، وهذا ما سنحاول بيانه بشكل موجز في هذا القسم، ونترك الكلام التفصيلي حول المضمون إلى التقسيم الثالث الآتي -أي التقسيم وفق المفاصل المركزيّة للأطروحات اليوتوبيّة-.

وعـلى أيّ حال، إذا أردنا أنْ نطرح خطًّـا زمانيًّا لهذا النوع مِن الكتابات، فإنّنا يمكن تصنيفه وفق الآتي:

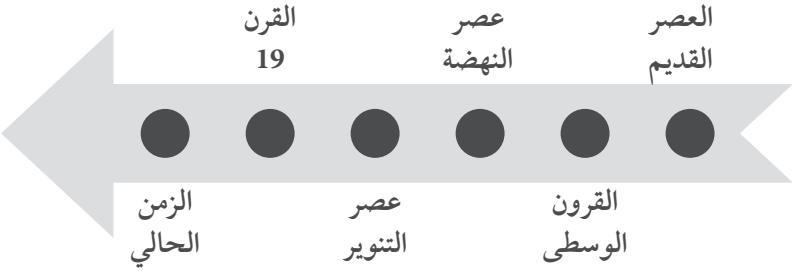

1 - يوتوبيات العصر القديم

قبل البدء بذكر نماذج اليوتوبيات في العصور القديمة، لا بدّ مِن تسجيل ملاحظـة على كثير مِـن المصنّفات التي تـؤرّخ للفكر الإنسـاني عمومًا، ولليوتوبيات خصوصًا، حيـث نجد تجليًّا واضحًا لاختزال الفكر العالمي ببقعة جغرافيّة هي أوروبا أو ما يعبرّ عنه عادة «الغرب»، في حين أنَّ التاريخ العـام للأفكار لم يكن بهذا النوع مِـن التمركز الذي يظهره بعض الكتّاب، ولذا فإنّنا نجد مثلاً بعض الكتب عندما أرادت أنْ تؤرّخ لنماذج اليوتوبيا في العالم القديم، قصرت نظرها على ما طرح في الفلسـفة اليونانيّة، مِن قبيل

ما جاء في جمهوريّة أفلاطون أو «سياسة» أرسطو، في حين نجد أنَّ العالم الشرقي ابتداء مِن الكونفوشوسيّة الصينيّة ومرورًا بالديانات والفلسفات الهنديّة وغيرهما، قد كان لديهم تصوّرات عن السعادة والعدالة والمجتمع المثالي.

وبناء على ذلك، إنَّ اليوتوبيات المطروحة في الفكر العالمي القديم يمكن تقسيمها إلى قسمين، الأوّل هو ما جاء في الديانات أو المذاهب الأخلاقيّة الشرقيّة -الصينيّة والهنديّة بشكل أساسي-، والثاني هو ما جاء في المذاهب الفلسفيّة الإغريقيّة والإسبرطيّة في الفضاء الأوروبي، وبحسب بعض الباحثين "نجد أنَّ حكماء الشرق القديم قد سبقوا فلاسفة اليونان بالعديد مِن النظريّات والأفكار السياسيّة، [والتي تمثّل اليوتوبيا بنظرهم] ومنها تقسيم المجتمع إلى طبقات ثلاثة، وأنَّ الطبقة الحاكمة هي أهل العلم والأخلاق، وأنَّ أفكارهم لم تقتصر فقط على أساطير الكون أو العالم أو الآلهة، بل تضمّنت معظم الموضات (أي الأنماط) الكونيّة والاجتماعيّة والسياسيّة"[1].

نعم، نجد أنَّ اليوتوبيات الأساسيّة تمّ تأسيسها على يد أفلاطون في كتاب "الجمهوريّة" وأرسطو في كتاب "السياسة" في القرون الخمسة قبل الميلاد وبلوتارك في القرن الأوّل الميلادي، وأخيرًا أرسطوفانيس الذي تعتبر اليوتوبيا التي قدّمها أشبه بمسرح ساخر، هي أهمّ اليوتوبيات التي حظيت باهتمام الكتّاب، وبالخصوص ربط ظهورها بالأحداث التي

1 - مجموعة مؤلّفين، اليوتوبيا والفلسفة، مصدر سابق، صفحة 46

شـكّلت باعثًـا للكتابة حـول المجتمع المثالي، ولعلّ الحدث الأسـاسي الانعطـافي هـو هزيمة الإغريق على يد إسـبرطة، مـمّا أدّى إلى تأثّر عقل اليونان المغلوب بالنموذج التنظيمي للغالب- أي إسبرطة- ومِن هنا "عندما شرع أفلاطون في بناء مدينته المثاليّة، اتّجه إلى إسـبرطة واتّخذها نموذجًا له. وهو بالطبع لم يقلّد هذا النموذج تقليد العبيد، ولكنَّ جمهوريّته أشـبه بالتنظيم التسـلّطي لإسبرطة منها بالتنظيمات الحرّة التي تمتّعت بها المدن اليونانيّة الأخرى في غضون القرون السابقة"[1].

واللافـت أيضًا أنَّ الافتراق بين التيّار السفسـطائي والتيّار الفلسـفي في تلك العصور، كان منعكسًا على تصويراتهم للمدينة الفاضلة أيضًا، ولكن لم يكـن النقاش بين هذيـن التيّارين نقاشًـا عقليًّا إيبسـتمولوجيًّا فقط[2]، صحيح أنَّ التيّار السفسـطائي يشتهر عنه أنّه كان مشكّكًا أو منكرًا للواقعيّة أو للعلم وإمكان المعرفة، وأنَّ الفلاسفة السقراطيين حاولوا التغلّب عليهم بالمحاورات والمحاججات المختلفة، لكنْ هناك سياق اجتماعي سياسي ألقى بظلاله على هاتين الفئتين – السفسـطائيين والفلاسـفة- بحيث نجد أنَّ تصوّراتهـم عـن المجتمع الذين يعيشـون فيه وعـن المجتمع الأفضل والسعادة القصوى أيضًا كانت بارزة في مناقشاتهم، بل يمكن أنْ يقال أيضًا إنَّ نقاشـاتهم النظريّة الدقيقة هي في طـول اختلاف تصوّراتهم عن الحياة والمجتمع، ولهذا بحث تفصيلي ليس هنا محلّه.

1 - ماريا لويزا برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، مصدر سابق، صفحة 31.
2 - المصدر نفسه.

2 - يوتوبيات القرون الوسطى

في يوتوبيات القرون الوسطى، وهي قرون ظلام أوروبا كما تسمّى، والتي ابتدأت مِن القرن الرابع الميلادي حتّى القرن الرابع عشر، حيث سادت فيها حاكميّة الكنيسة، فإنّنا نجد أنَّ أغلب اليوتوبيات كانت ذات طابع كنسي مسيحي، وبالخصوص ما نجده عند الفيلسوفين: أوغسطين وتوما الأكويني، حيث كتب الأوّل كتابه المعروف "مدينة الله"، والذي دوّن فيه أسس الحكم والمجتمع المثالي مقابل مدينة الشيطان، وكتب الثاني كتابه "أصول الحكم" مبيّنًا أبعاد الحكم النموذجي، والذي يمكن اعتباره "يوتوبيا" خاصّة به.

والسياق السياسي الاجتماعي الأساس الذي حكم هذه اليوتوبيات هو الدفاع عن الدين المسيحي في قدرته على بناء نموذج يلائم الحياة الأرضيّة – وإنْ كان هناك شكّ عند أوغسطين كما سنجد في تحقيق اليوتوبيا في الأرض وعلى يد الإنسان؛ لأنَّ الحياة الأرضيّة نشأت مِن خطيئة آدم ومطبوعة في جوهرها على عدم المثاليّة.

في المقلب الآخر مِن العالم، نجد أنَّ القرون الوسطى في بدايتها ترافقت مع ظهور الدين الإسلامي في شبه الجزيرة العربيّة، والذي بدأ معه النموذج المهدوي أو نموذج "آخر الزمان" حول اليوتوبيا، وهو ما حظي باهتمام أقلّ مِن قبل المؤرّخين الغربيين، واللافت أنَّ بعضهم وضع كلّ ما هو غير غربي ضمن عنوان "اليوتوبيّة في الثقافات الأخرى"[1] وكأنّها أمور تقع على هامش الحراك العالمي للأفكار.

1 - لايمان تاور سارجنت، اليوتوبيا، مصدر سابق، 69.

3 - يوتوبيات عصر النهضة

عـصر النهضة هو العصر الممتدّ مِن القـرن الرابع عشر الميلادي للقرن السابع عشر، وهو بالفعل عصر صعود اليوتوبيات في الفكر الغربي، حيث نجد أنَّ مصطلح « اليوتوبيا» قد نُحت في هذا العصر على يد توماس مور، واسـتمرّت التصنيفات مِن بعده عند توماسـو كامبانيللا في كتاب «مدينة الشمس» وفالنتين أندريا في كتاب «مدينة المسيحيين».

ومِن ناحية السـياق الاجتماعي والسياسي، فقد تأثّرت اليوتوبيات في هذا العصر بكونهـا ردود فعل على حركة عصر النهضة والإصلاح الديني، «فلقد صاحب الحركة الفنيّة والعمليّة الرائعة لعصر النهضة تفكّك المجتمع، فتأكيد فرديّة الإنسان، وتطوير ملكاته النقديّة، وتوسيع نطاق المعرفة، قد عملت كلّها عـلى تدمير الروح الجماعيّة للعصور الوسـطى، وقضـت على وحدة العالم المسيحي"[1]، فجاءت هذه اليوتوبيات – على اختلاف مضامينها وعناصرها كما سنشـير إليه لاحقًا- سـاعية لخلق وحدة جديدة للعالم المسـيحي كما كانـت ناقدة للنزعة الفرديّة المتطرّفـة في هذا العصر، مضافًا إلى كونها تمثّل إجابات على أسـئلة يوميّة كانت مطروحة في ذلـك العصر، مِن قبيل قوانين العقوبات والإصـلاح الديني وطاعة الملك وغير ذلـك، وبدأ الحديث عن نقد الملكيّة الفرديّة مقابل الملكيّة الاجتماعيّة وملكيّة الدولة، والتي ستشكّل فيما بعد أساسًا لانطلاق اليوتوبيا الماركسيّة والشيوعيّة.

ولا يفوتنـا أنْ نذكـر أخيراً " أطلنطا الجديدة" والتي تعتبر يوتوبيا فرانسـيس

1 - ماريا لويزا برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، مصدر سابق، صفحة 95.

بيكّون الذي يوصف بأنّه أحد آباء العلم التجريبي، والذي تميّز بطرح محوريّة العلم الطبيعي في كونه أساسًا لتشكّل المجتمع المثالي كما سنشير إليه لاحقًا.

4 - يوتوبيات عصر التنوير

عصر التنوير هو الذي يطلق عادة على الفترة الممتدّة مِن النصف الأخير مِن القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر، وانصبغت هذه الفترة بمجموعة مِن الأفكار التي تتمحور حول سيادة العقل وقيم الحريّة والتسامح ورفض السلطة السياسيّة الدينيّة، ولذا نجد أنَّ اليوتوبيات المطروحة في هذا العصر كانت تصويرًا لعالم مليء بالحريّات وعدم الانقياد لأيّ منظومة تحدّ مِن الحريّة، وبحسب بعض الكتّاب «سعى القرن الثامن عشر إلى تحقيق قدر أكبر مِن الحريّة، وبخاصّة فيما يتعلّق بالعلاقات الجنسيّة [...] وسخطوا سخطًا شديدًا على القيود التي فرضتها عليهم الأخلاق الدينيّة»[1]. ويمكن للباحث أنْ ينظر إلى أهمّ تيّارات الفلسفة العامّة في هذا العصر، والتي تمثّلت بمثل هيوم، والذين كان فكرهم انقلابًا على الاعتقادات الميتافيزيقيّة فكان سياق اليوتوبيا في هذا الإطار نفسه.

5 - يوتوبيات القرن التاسع عشر

يمكننا اعتبار القرن التاسع عشر هو امتداد مِن حيث الاهتمامات لأواخر عصر التنوير، حيث صار التوجّه أكثر إلى إبعاد «المعنى» عن الحياة الإنسانيّة

1 - المصدر نفسه، 262.

والتوجّه إلى العقلنة وتهميش الميتافيزيقيا والإلهيّات والرؤى الدينيّة، وهذا ما سنتحدّث عنه في التقسيم الثالث، ولكنَّ الحدث الأهمّ هو أنَّ القرن التاسع عشر شكّل بروزاً لليوتوبيا الاشتراكيّة كحركة إصلاح اجتماعي، ونجد صعوداً لاستخدام مصطلح « اليوتوبيا» من قبل فريديريك أنجلز الذي كتب كتاباً يحمل عنوان «الاشتراكية: اليوتوبيا والعلم»، وبدأ بالتنظير لمجتمع خالٍ من الطبقات، والذي يميّز أنجلز هو توصيفه الدقيق لبعض اليوتوبيات السابقة له، والتي كانت بجوهرها تسعى إلى نوع من الاشتراكيّة بين البشر. وبالتالي، فالسياق الاجتماعي الأساسي هو ظهور الاشتراكيّة وبناء اليوتوبيا عليها.

6 - اليوتوبيات المعاصرة

إنَّ الواقع المعاصر يشهد بالفعل تراجعًا لنمط اليوتوبيات السابقة، ولا نجد شيئًا يذكر حول تصوير مشاهد مثاليّة لمجتمعات تعيش يوميّات يوتوبيّة، ولذلك أسبابه السياسيّة والاجتماعيّة ترجع إلى ما شهده القرن الماضي وقرننا الحالي من حروب - لا سيّما الحربين العالميّتين- وانتشار للأوبئة والبطالة والمجاعة والفقر وظهور أزمات البيئة وعدم المساواة بين الأعراق وظهور حقوق الأقليّات وغير ذلك من التغييرات الاجتماعيّة التي ألقت بظلالها على نوع التحرّكات الاجتماعيّة التي اتّخذت في أغلبها نمطًا متمرّدًا على واقع معاش، وهذا أدّى بطبيعة الحال إلى أنْ تنشأ شعارات تمثّل روح يوتوبيّة قوميّة أو بيئيّة أو جندريّة أو نسويّة وما إلى ذلك.[1]

1 - راجع: لايمان تاور سارجنت، اليوتوبيا، مصدر سابق، 35- 37.

التقسيم الثالث: التقسيم وفق مضامين اليوتوبيات

ما ذكرناه اختصارًا في التقسيم السابق لليوتوبيات يُظهر بشكل واضح أنَّ العقل اليوتوبي كان منشغلاً بالواقع الذي يعيشه الكاتب أو الأديب أو الفيلسوف الذي يكتب لنا نموذجًا مِن مجتمع لا يعيشه ويأمل أنْ يتحقّق في المستقبل، فهزيمة أثينا كانت عاملاً مؤثّرًا في تصوير اليونانيين مدينتهم الفاضلة المحاكية للتنظيم الاجتماعي والسياسي لإسبرطة، وكذا صعود الكنيسة إلى الحياة السياسيّة كان له دور في بناء مشهديّة «مدينة الله» في القرون الوسطى، وصعود حركة الإصلاح الديني وتفكّك وحدة المجتمعات أيضًا كان مِن العناصر المحرّكة لنشوء يوتوبيا عصر النهضة، وصولاً إلى عصر التنوير وصعود العقلانيّة النافية للبعد الميتافيزيقي واليوتوبيا المماشية أو المعارضة له، إلى ظهور الاشتراكيّة وما بعدها في عصرنا الحالي مِن حروب عالميّة أثّرت في تراجع اليوتوبيات العالميّة والمتفائلة إلى يوتوبيات منحسرة وضيّقة الأبعاد، هذا كلّه كان سيراً مقايسًا للفكر اليوتوبي مع الأحداث السياسيّة والاجتماعيّة، وأما إذا أردنا أنْ نقسّم اليوتوبيات لا على وفق السير التاريخي، بل بناء على ما تطرحه مِن مضامين وأفكار تشكّل مفاصل المجتمع المثالي بغضّ النظر عن زمن وسياق طرحها، فإنّنا نجد أنفسنا أمام عدّة أقسام منها:

1 - يوتوبيا الحياة اليوميّة والبنية الفوقيّة:

ونقصد بها أصناف اليوتوبيات التي اهتمّت بشكل كبير بوصف مرافق الحياة التي يعيشها اليوتوبيّون في يوميّاتهم، وكيفيّة تمثّل المساواة فيما

بينهـم، والعلاقة بين الحاكم والمحكومين والمشـهد الاقتصادي اليومي، مِن قبيل طعامهم وشرابهم ولباسـهم، وأسـاليب العقوبة وغير ذلك، يقع على رأس هذا النوع مِن اليوتوبيات ما يسـمّى بالأدب اليوتوبي مثل الذي كتبه توماس مور، حيث «يحوي الكتاب الثاني مِن (يوتوبيا) وصفًا مفصّلاً لمعظم نواحي الحياة في الجزيرة.»[1]، وإنْ كان في جزء يسـير منه يبحث الأسس الفلسفيّة والأخلاقيّة لهذه الحياة.

وكذا يمكن ضمّ سـائر يوتوبيات عصر النهضة إلى هذا الصنف مِن قبيل "مدينة الشمس" لكامبانيلا وغيره.

وفي الحقيقـة إنَّ هـذا الصنـف مِن المضامـين اليوتوبيّة التـي تُغرق في وصـف الحياة اليوميّـة لليوتوبيين، لا نجد أنّه يفيدنـا فيما نحن فيه في هذا الكتـاب؛ وذلك لأنَّ مِن شرط المقارنة بين أي أمرين، وجود جامع مشـترك تتمّ على أساسه المقارنة، فلا يمكن مقارنة اللون بالوزن لأنّهما مِن مقولتين مختلفتين، ونحن وفق ما أسّسـناه في الباب الأوّل حول اليوتوبيا المهدويّة، لم نصل إلى توصيف دقيق لمجتمع المهدويّة في يوميّاتها، مِن قبيل اللباس والمـأكل والمشرب وطبيعة الزراعـة وغير ذلك؛ لأنّنـا لم نكن بصدد بيان تخييلي محض، بل كنّا بصدد الانتقال ممّا يفيده العقل الفلسـفي الإسلامي والنصّ الديني القرآني والروائي في هذا الخصوص، وكلاهما لا يعطيان هذا الحجـم مِن التفاصيل، فاليوتوبيا المهدويّة لا تقدّم لنا وصفًا شـاملاً وعامًّا لتفاصيل الحياة اليوميّة للمجتمـع المهدوي، وإنْ كنّا نجد بعض التفاصيل

1 - توماس مور، يوتوبيا، مصدر سابق، صفحة 61.

في بعض النصوص التي لا تنهض لبناء أنموذج شـامل لمرافق الحياة، ولذا لن يكون هذا الصنف مِن الأدب اليوتوبي محلّ نظر لدينا.

نعـم، في بعض الفصول التي كتبهـا أدباء يوتوبيّون نجـد أنّهم تعرّضوا لفلسـفة القيم والأخـلاق وموقع الإيمان والعلـم في مجتمعهم اليوتوبي، فهذا ما سنشير إليه، ولكنْ يدخل في القسم الثالث مِن هذه الجهة.

2 - اليوتوبيا المتعدّدة

نقصد مِن اليوتوبيا المتعّددة تلك التي اهتمّت ببناء منظور غير اجتماعي عام للمجتمع المثالي، وذلك مثل اليوتوبيا البيئيّة – الإيكوتوبيا- واليوتوبيا النسـويّة، والتي انتشرت بشـكل كبير في القرن الحـالي والماضي، حيث نجـد أنَّ فعل السرد والتفكير اليوتوبي كان مختصرًا على أقليّات اجتماعيّة أو على أعراق محدّدة أو إثنيّات أو فعاليّات اجتماعيّة خاصّة، وهو أيضًا لا يكون أحد طرفي المقارنة بينه وبين اليوتوبيا المهدويّة للسـبب نفسه الذي ذكرناه في القسم السابق، مضافًا إلى أنَّ هذا النوع مِن اليوتوبيات لا يصبّ في عالميّـة القضيّة المهدويّة ونظرها إلى التغيير الشـامل وتحقيق العدالة في الأرض بل على جميع مسـتويات الإنسان. وبعبارة أخرى، إنَّ اليوتوبيا المهدويّة، التي صوّرناها في الباب الأوّل، محلّ نظرها "العالم" والإنسـان بما هو إنسان، لا قضيّة خاصّة وإنسان خاصّ.

3 - يوتوبيا البنية التحتيّة

إنَّ كلّ اليوتوبيـات التـي ذكرناها تحتوي – عـن وعي وتنصيص أو

عــن غير وعــي- بنىً تحتيّة تكشــف العقل الفلســفي الذي يكمن في عقل كاتبه لما يراه مِن معنى «المثاليّة» في مجتمعه المثالي، فاليوتوبيا التــي تصوّر الحياة اليوميّــة أو تلك التي تعتني بموقــع البيئة في حياة البشر، كلّها تبتني على مواقف فلسفيّة عند كاتبها حول الرقيّ والتعالي الاجتماعــي، ولكنْ هنــاك أنماط مِــن اليوتوبيات كان هــذا الجانب التحليلي بارزًا فيها، لا ســيّما اليوتوبيــات الدينيّة كمدينة الله للقديس أوغســطين وأصول الحكم لتوما الأكويني، وآراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي، فهؤلاء في الحقيقة جعلوا جلّ جهدهم في بيان البنى التحتيّة للمجتمــع المثالي بناء عــلى تصوّراتهم، مِن معنى العــدل، والحريّة، ومِــن قبيل دور الديــن في المجتمع اليوتوبي المتصــوّر لديهم، ومِن قبيل أســس شــخصيّة الحاكم الوضــع النفسي والمعــرفي والمعنوي عند ســكّان اليوتوبيا، ولذا نجد أنَّ هذا الصنف يتقاطع بشكل واضح مع مــا قدّمناه في الباب الأوّل حول اليوتوبيا المهدويّة، ولذا ســنتّخذ هذا القســم طرفًا مِن أطراف المقارنة، فنبيّن أســس البنى التحتيّة لهذه اليوتوبيــات – غير غافلين عــن بعض البنى التحتيّــة الملمّح إليها في القسمين الســابقين- مع بيان المائز بينها وبين يوتوبيا المهدويّة، حتّى نخرج بنتيجة تمثّل الإجابة عن السؤال الآتي: ما هو الشيء المميّز في التصوير الإسلامي -العقلي والنصّي- ليوتوبيا آخر الزمان؟ وبأيّ شيء يكــون المجتمع المهدويّ يوتوبيا خاصّة بالمســلمين عامّة وبالإماميّة خاصّــة؟ وهل يكون نموذجًا يوتوبيًّا جديدًا غير معهود في التصنيفات اليوتوبيّة العالميّة؟

المبحث الثاني:
اليوتوبيا المهدويّة ويوتوبيات العالم

إذا أردنا أنْ نأخذ المضمون الذي أبرزته مختلف اليوتوبيات، بغضّ النظر عن تسلسلها التاريخي، فإنّنا نجد أمرًا لافتًا فيها، وهو وجود أمر محوري في كلّ واحد منها، كان الأساس في بناء المدينة الفاضلة وفق التصويرات المختلفة، وإذا أردنا أنْ نبيّن أهمّ هذه الركائز المختلفة، يمكننا جعلها ضمن أربعة محاور، يكون كلّ محور هو البعد الأساسي في نمط خاصّ مِن اليوتوبيات السابقة:

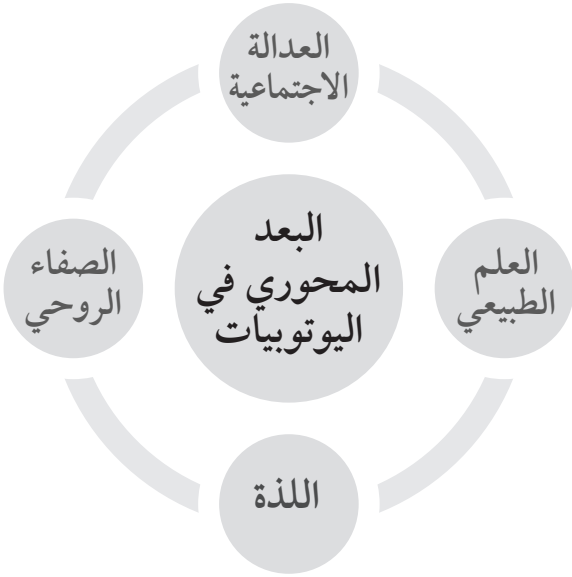

● أوّلًا: محوريّة العدالة الاجتماعيّة في اليوتوبيات اليونانيّة

1 - بيان المسألة:

في "جمهوريّة" أفلاطون[1]، والذي هو نصّ مكثّف ومعقّد نوعًا ما، خاصّة أنّه محاورة كتبها أفلاطون بين سقراط وغيره، نجد أنَّ التأسيس للمدينة الفاضلة بدأ بشكل محوري من تفنيد سقراط لأنماط وصور العدالة التي يطرحها محاوروه ومِن ثَمَّ تأسيس تصوّر جديد للعدالة التي تسود هذه الدولة أو المدينة المثلى.

يطرح «بوليمارخوس» تعريفًا للعدالة وأنّه «مساعدة الأصدقاء والإضرار بالأعداء»[2]، وكذلك طرح آخرون أنَّ العدالة هي إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه[3]، فيما ذهب آخرون إلى تعريفات أخرى لم يقبلها سقراط على ما نقله أفلاطون في هذه المحاورة[4]، وبعد مجادلات طويلة يبدأ سقراط

---

1 - ومِن المتفق عليه، بوجهٍ عام، أنَّ الموضوعات الرئيسة التي تعالجها المحاورة في كتبها المختلفة هي:

1. الكتاب الأوّل: مقدّمة في الآراء الشائعة عن العدالة.
2. الكتاب الثاني والثالث والرابع: العدالة في الدولة والفرد.
3. الكتاب الخامس والسادس والسابع: نظم الدولة المُثلى وحكم الفلاسفة.
4. الكتاب الثامن والتاسع: تدهور المجتمع والفرد.
5. الكتاب العاشر: الصراع بين الفلسفة والشعر.
6. الكتاب العاشر: مصير الإنسان وخلود النفس. (راجع مقدّمة فؤاد زكريا لكتاب الجمهوريّة).

2 - أفلاطون، الجمهوريّة، ترجمة فؤاد زكريّا، مؤسّسة هنداوي، القاهرة- مصر، 2023، صفحة 180.

3 - المصدر نفسه.

4 - مثل تعريف العدالة بأنها الخضوع لصالح الأقوى، راجع: المصدر نفسه 191.

بطرح نموذجه حـول العدالة، ويتّخذ طرقه أوّلاً بوصف العدالة في نطاقها العام المتحقّق في المجتمع والدولة ثمّ يتنزّل ليسـقط المعنى الذي وصل إليه على شخصيّة الفرد، وبحسب قوله «أقترح أنْ نبحث عن طبيعة العدالة أوّلاً في الدولة، ثمّ نبحثها بعد ذلك في الفرد، فننتقل بذلك مِن الأكبر إلى الأصغر، ونقارن بين الاثنين»[1] .

فما هـي العدالة في الدولة؟ يطرح سـقراط – وتبعًا له أفلاطون- مسـيراً فكريًّا يوصله إلى أنَّ العدالة في حقيقتها هي أنْ يطبّق الفرد العمل والوظيفة التـي تمليها عليه طبيعته الخاصّة، فالنجّـار إذا عمل بالنجارة، والحداد إذا عمـل بالحدادة، والمـدرّس إذا عمل بالتربية والتعليـم، ولم يحد أحد مِن هؤلاء عن وظيفته الخاصّة النابعة مِن جوهره وطبيعته، فهذه هي العدالة في المجتمع المثالي، ولأجل الوصول إلى هذه النتيجة طرح المقدّمات الآتية:

1 - إنَّ التشكّل الاجتماعي واجتماع الناس لأجل تشكيل مدينة أو دولة، إنّما ينشـأ مِن «عجز الفرد عن الاكتفاء بذاته وحاجته إلى أشـياء لا حصر لها»[2]، فالفرد يحتاج إلى الطعام واللباس وإلى بيت يسكن فيه وإلى الأمن وغير ذلك، وهو – أي الفرد- عاجز عن القيام بنفسه بصناعة لباسه وطعامه وبيته وغير ذلـك، فيحتاج إلى مَن يعاونه في تأمين احتياجاته. فالأسـاس الحقيقي الذي تقوم عليه الدولة هو الحاجة.

2 - وإذا كان الأمـر كذلك، فلا بدّ أنْ "يكـون أحد الناس زارعًا، والآخر

1 - المصدر نفسه، 222.

2 - المصدر نفسه، 223.

نسّـاجًا، ولعلّنـا نضيـف إلى ذلك حـذّاءً، وصانعًـا آخر للوفـاء بحاجتنا الماديّة"[1]، ولكنْ على أيّ أساس يتمّ تقسيم العمل بين الناس؟

3 - الجواب هو «أنّنا لسنا جميعًا سواء، وإنّما تتباين طبائعنا وتوجد بيننا فروق كامنة تجعل كلاًّ منّا صالحًا لعمل معيّن"[2].

وبعد مناقشـات أخرى – لا تدخل في عمق ما نريده ههنا- ينتهي سـقراط إلى أنَّ «عـلى كلّ فـرد أنْ يؤدّي وظيفة واحـدة في المجتمع، هي تلك التي وهبته الطبيعة خير قدرة على أدائها [...] وقلنا إنَّ مِن العدل أنْ ينصرف المرء إلى شـؤونه، دون أنْ يتدخّل في شـؤون غيره [...] [وعليه] كمال الدولة هو تلك الفضيلة التي تجعل كلاًّ مِن الأطفال والنساء والعبيد والأحرار والصنّاع والحاكمين والمحكومين يؤدّي عمله، دون أنْ يتدخّل في عمل غيره"[3].

2 - النقد في ضوء المهدويّة

تقدّم في الباب الأوّل أنَّ أهمّ بُعد مِن أبعاد يوتوبيا المهدويّة هو نشر العدل وامتلاء الأرض به، وأنَّ العدالة المقصودة بما ينسجم مع الفكر الإسلامي، هو العدل في جميع مراتب الإنسانيّة؛ أي العدالة التي تشمل عدالة التوزيع والعدالة الاجتماعيّة، والتي تشمل أيضًا الاعتدال الاجتماعي والفردي على مستوى النظم الأخلاقي والروحي. وبعبارة أخرى، «الإنسان إذا ما انحرف

1 - المصدر نفسه 223.

2 - المصدر نفسه 224.

3 المصدر نفسه 300.

عن جادة الصواب سـواء انحراف عمـلي، أو انحراف روحي، أو انحراف عقلي، فمعالجة هذه الانحرافات بالمعنى الحقيقي هي إيجاد العدل لدى الإنسـان، فعندما يعود الإنسـان المنحرف خلقيًّا إلى جادة الاعتدال، فإنَّ ذلك يعني تحقيق العدالة في داخله، وإذا ما طرأ أيّ انحراف أو سقم على عقائد الإنسـان، فإنَّ تعديل هذه العقائد المعوجّة والسـقيمة والعمل على تصحيحها وجعلها على الصراط المسـتقيم، يعدّ بسطًا للعدل على صعيد عقل الإنسـان، ففي عصر ظهور المهدي الموعود- سلام الله عليه- الذي ادّخـره الله، وبما أنّه لم يتيسّر لأحد مِن الأولين والآخرين - سـوى الإمام المهدي الموعود- أنْ يبسط العدل في كلّ العالم"[1].

ولنـا أنْ نتصـوّر المجتمع المهدوي بناء على ذلك أنّـه مجتمع له هويّته العقليّة والروحيّة، وليس مجتمعًا ذا هويّة اقتصاديّة أو سياسـيّة فقط، وهذه الهويّة الروحيّة والعقليّة هي التي تظهر في الآخرة على أنّها شـاكلة وصورة الأمّة الحقيقيّـة، فيوم القيامة والآخرة هو "يوم تبلى السرائر" أي يوم ظهور الحقائـق وانتفاء الاعتباريّـات والأوهام، وما يظهـر في الآخرة هو حقيقة مترسّـخة في النفـوس، وقد صرّح القـرآن الكريم أنّه كـما أنَّ للفرد حقيقة تتمثّـل بقيمه وأخلاقه وعقائده، وهي التي تظهر معه في الآخرة، كذلك إنَّ للمجتمعات حقيقة تظهر في الآخرة، وقد بيّنا هذا الأمر في الباب الأوّل.

1 - خمينـی، روح‌اللـه، رهبر انقلاب و بنیانگذار جمهوری اسـلامی ایران، صحیفة الإمام(ترجمـه عربی)، 22جلد، موسسـه تنظیم و نشر آثار امـام خمینی (س) - ایران - تهران، چاپ: 1، 1429 ه.ق.، الجزء 12، صفحة 384

وبناء عليه، إنَّ كلّ فرد في المجتمع ينتمي فعلاً إلى قيم المجتمع وعقائده، ستتكوّن له هويّة اجتماعيّة مضافًا إلى هويّته الفرديّة، فتتشكّل بينه وبين أفراد المجتمع – الحاكم والمحكومين- رابطة حقيقيّة لا اعتباريّة، تشكّل هذه الرابطة الحقيقيّة صبغة للنفس، تنتقل معها انتقال الملكات والأخلاق في الآخرة، ولأجل ذلك كان الاعتدال الروحي والإيماني والعقلي والسلوكي في المجتمع، والذي تتمّ على أساسه الروابط الاجتماعيّة كافّة، دور في جعل الجماعة ذات وحدة حقيقيّة تظهر وحدتها في الآخرة، فتظهر الأخوة الحقيقيّة في الآخرة في الوقت الذي تنقطع فيه الأنساب ويفرّ المرء مِن أبيه وأمه وأخيه وصاحبته، لأنَّ هذه الأنساب كانت ماديّة فلا تنتقل عند مفارقة عالم المادّة، بخلاف الأخوة الإيمانيّة الحقيقيّة، ولذا كان أهل الجنّة كما قَالَ اللَّهُ جَلَّ وعَلَا: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِن غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ**﴾ الحجر (47). وأمّا الذين بنوا نظامهم الاجتماعي على ما لا ينتقل إلى الآخرة، أي لا يساهم بتشكيل الهويّة الواقعيّة المتناسبة مع الروح المجرّدة عن الماديّة – والتي تتألّف مِن القيم والملكات الأخلاقيّة الرفيعة والإيمان بالله تعالى- فليس لهم رابطة واقعيّة إلّا رابطة البراءة والتلاؤم، قَالَ سُبْحَانَهُ و تَعَالَىٰ: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ**﴾ البقرة (166)، فحقيقة عداوتهم في الواقع هي عدم انتقال رابطتهم الأرضيّة التي كانت تجعلهم منسجمين في الأرض ضمن مدينة واحدة إلى رابطة أخرويّة حقيقيّة.

وبه يظهر أنَّ يوتوبيات العدالة الاجتماعيّة لا تمثّل عمق اليوتوبيا المهدويّة المستندة أيضًا إلى العدل.

● ثانيًا: البعد الروحي في اليوتوبيات الدينيّة المسيحيّة

1 - بيان المسألة

تعتبر أكثر اليوتوبيات الدينيّة، والتي طُرحت بشكل خاصّ في القرون الوسطى على يد آباء الكنيسة، مِن اليوتوبيات التي نظّرت لآخر زمان روحي ومعنوي، أكثر مِن كونه تصميمًا ماديًّا عمرانيًّا كما نجده مثلاً في عصر النهضة وما بعده، وتجلّت أعظم يوتوبيا دينيّة مسيحيّة في كتاب "مدينة الله" للقديس أوغسطين.

صفوة الكلام الذي يذكره كتاب "مدينة الله" هو تصوير الجانب الروحي في المدينة الفاضلة والمجتمع المثالي على أنّه الركيزة الأساسيّة، دون إعطاء قدر كبير لتحليل مفاهيم العدل والمساواة والحرية وما إلى ذلك، بل إنَّ هذه القيم تكاد تكون أمورًا ثانويّة في الفكر اليوتوبي الأوغسطيني بالنظر إلى البعد الروحي لأبناء "مدينة الله"، وهو يفصل في ذلك بين مدينتين: مدينة الشيطان ومدينة الله، حيث تكون شاكلة المدينة الأولى هي السعي وراء لذّات الجسد والمادّة، وبتعبير مختصر "الحياة لأجل الجسد"، في مقابل مدينة الله التي تكون الحياة فيها "حياة لأجل الله"، وبالتالي هناك تهميش لمحوريّة الشهوات الجسديّة والماديّة، هذه هي عمدة الفكرة الأوغسطينيّة حول مدينة الله، ويمكن بيانها تفصيلاً مِن خلال ذكر النقاط الآتية:

1 - قيمة الإنسان وبالتالي المجتمع البشري تكمن في ميوله الإيمانيّة، وبالتالي فإنَّ مدينة الله هي تلك التي يسود فيها الإيمان بالله، وبالتالي «فإنَّ

دستور المدينة يجب أنْ يرتبط بالتعاليم المسيحيّة وبالطابع المقدّس»[1].

2 - المائز الفاصل بين مدينة الأرض/الشيطان ومدينة السماء/الله، هو أنَّ روح المدينة السماويّة هو محبّة الله، والعيش لأجله لا العيش لأجل الجسد وملذّاته، « فالبنية السوسيولوجيّة للمجتمع الأوغسطيني داخل مدينة الإله، لا تجعل التجمّع جرثوميًّا حول المادّة أو نتيجة للبحث عن إشباع الحاجات بل المحبّة هي روح الجماعة وترعاها العناية الإلهيّة، وهي أساس التجمّع والتفاهم بين الأفراد"[2]. وبهذا يفترق أوغسطين عن تصوير أفلاطون في جمهوريّته في أنَّ التجمّع أساسه الحاجة إلى المأكل والملبس وغيرها مِن الحاجات الماديّة، ومِن ثَمَّ يأتي القانون الحاكم والعدالة على طبقه – كما تقدّم-.

ومِن التصريحات التي ذكرها أنَّ روح الجماعة هي هذه الميول والمحبّة، ما ذكره في مدينة الله حيث قال "إذا أراد الإنسان أنْ يعرف شعبًا ما، فعليه بكلّ تأكيد أنْ يتأمّل فيما يحبّ أيًّا كان موضوع حبّه"[3].

3 - محوريّة العبادة والبعد عن الملذّات الدنيويّة هي أيضًا مِن المميّزات التي يركّز عليها أوغسطين في مدينته، «ففي الواقع أيًّا تكون السيطرة التي تمارسها النفس على الجسد والعقل على العيوب على ما يبدو، إنْ لم تؤدّ

1 - عفيان محمّد، التوظيف السياسي لليوتوبيا: القدّيس أوغسطين نموذجًا (رسالة جامعيّة)، جامعة الجزائر، 2009، صفحة 82.

2 - عفيان محمّد، التوظيف السياسي لليوتوبيا: القدّيس أوغسطين نموذجًا، مصدر سابق، صفحة 89.

3 - أوغسطين، مدينة الله، مصدر سابق، 161.

النفس والعقل واجب العبادة التي يطلبها، فإنَّ تلك السيطرة على الجسد لا تكون مستقيمة"[1].

4 - فلسفة الانتظار، وكون وجود مدينة الله متعلّقًا بظهور المسيح، فقبل هذا الأمر تكون مدينة الله غير خالصة، بل متداخلة مع مدينة الشيطان، ولذا ذكر بعض الباحثين أنَّ مدينة الله عند أوغسطين عبارة عن يوتوبيا خياليّة أو يوتوبيا "منتظرة" بشكل أدقّ، فمدينة الله ومدينة الشيطان اليوم "متشابكتان متداخلتان ريثما يفصل يسوع في ذلك وتحلّ الغلبة للمدينة الإلهيّة التي بفضل الزهد والكفّ عن الشهوات واتباع نواميس الفضيلة والتسامح تشتدّ شوكتها وتحقّق نصرها على مدينة الشيطان الأرضيّة"[2].

2 - النقد في ضوء المهدويّة

لا يمكن أنْ نخفي أنَّ هناك تقاطعًا بين محوريّة البعد الروحي في «مدينة الله» وما صوّرناه سابقًا عن المدينة الفاضلة المهدويّة، فكلاهما يركّز على ضرورة الانتقال إلى مستوى الروح والإيمان والاعتقاد الحاكم في الطبيعة اليوتوبيّة للمجتمع، ولكنْ هناك فرق يتمايز به المجتمع المهدوي عن اليوتوبيا الأوغسطينيّة، وهي بناء أصل الحياة الأرضيّة في «مدينة الله» على مفهوم الخطيئة والشيطنة، وهذا ما يتعارض بشكل واضح مع الفكر

1 - المصدر نفسه، 162.

2 - عفيان محمّد، التوظيف السياسي لليوتوبيا: القدّيس أوغسطين نموذجًا، مصدر سابق، صفحة 106.

الإسلامي عمومًا، ومع اليوتوبيا المهدويّة خصوصًا، فإنَّ أوغسطين يصوّر – بناء على رؤية مسيحيّة ترجع النزول إلى الأرض إلى خطيئة آدم عليه السلام- تباينًا صارخًا بين العيش لأجل الله تعالى والاهتمام بالأرض وعالم الطبيعة، ولا نجد في فكره تصويرًا لفطرة الله تعالى التي تعتبر أساسًا في الفكر الإسلامي، وأنَّ الأصل في البشر هي الفطرة الصافية، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الرّوم (30). ولذا، كانت مدينة الله عنده نوعًا من الانقلاب، بخلاف اليوتوبيا المهدويّة التي تصوّر المدينة الإلهيّة على أنَّها نوع من الارتقاء وإخراج دفائن العقول والفطرة الإلهيّة. وبعبارة أوضح، إنَّ رؤية الإسلام للإنسان لا تجعل الأصالة فيه للخطيئة والشهوة والنزوات، بل تجعل هذه الأمور طارئة على حقيقته، وأمّا فطرة الله تعالى والاستقامة على الإيمان هي الأصل. ولذا، فالمدينة المهدويّة تشبه أنْ تكون تربية لا انقلابًا وانتقالاً من طور إلى طور.

وهذا الأمر يجرّنا إلى طرح مسألة نزول آدم إلى الأرض ومعنى الخطيئة والعصيان المذكورة في القرآن الكريم وفرقها عن الخطيئة بالمعنى المسيحي، فإذا راجعنا الآيات حول أصل خلق آدم عليه السلام، يظهر لدينا أمران مهمّان في المسألة:

1 - أنَّ الله تعالى إنّما خلق آدم ليكون خليفة في الأرض لا في الجنّة، وبالتالي فنزول آدم إلى الأرض هو في أصل خلقته.

2 - أنَّ الله تعالى جعل تعليم آدم من الأمور التي تميّزه عن المخلوقات الأخرى، ونحن نغضّ النظر عن معنى تعليم الأسماء إذ في المسألة بحث

كثـير، ولكنْ إنَّ قضيّة المعرفة والتعليم شـكّلت أساسًـا في بنية آدم الذي يتّصف بأنّه خليفة الله.

وهذان الأمران بيّنتهما الآيات الآتية:

قَالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ البقرة (30 -33).

وبملاحظـة ذلك نجد أنَّ الملائكة عرفت أنَّ وجود الإنسـان في الأرض سـيكون ملازمًا لسفك الدماء والفسـاد، ولذلك اعترضت على الله تعالى بأنّهـا هي الطاهرة المسـبّحة والمقدّسـة له، وغير مشـوبة بما يبعث على الفسـاد، فقال الله تعالى إنّه قد علّم آدم والأسـماء، وبهـذا التعليم يتفوّق عليكم ويكون أهلاً ليكون خليفة لله تعالى.

ثمّ إنَّ الآيات القرآنيّة ترشد إلى أنَّ المقصود من الخليفة مطلق الإنسان لا خصوص آدم عليه السلام، وبحسب ما يذكره العلّامة الطباطبائي « فالخلافة غير مقصورة على شخص آدم (ع) بل بنوه يشاركونه فيها من غير اختصاص، ويكون معنى تعليم الأسماء إيداع هذا العلم في الإنسان بحيث يظهر منه آثاره تدريجًا دائمًا ولو اهتدى إلى السبيل أمكنه أنْ يخرجه من القوّة إلى

الفعل، ويؤيّد عموم الخلافة قوله تعالى﴿**إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ**﴾: الأعراف- 69، وقوله تعالى ﴿**ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ**﴾: يونس- 14، وقوله تعالى «وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ»: النمل- 62. وثانيًا، إنّه سبحانه لم ينف عن خليفة الأرض الفساد وسفك الدماء، ولا كذب الملائكة في دعواهم التسبيح والتقديس، وقرّرهم على ما ادّعوا، بل إنمّا أبدى شيئًا آخر، وهو أنَّ هناك أمرًا لا يقدر الملائكة على حمله ولا تتحمّله ويتحمّله هذا الخليفة الأرضي، فإنّه يحكي عن الله سبحانه أمرًا ويتحمّل منه سرًّا ليس في وسع الملائكة، ولا محالة يتدارك بذلك أمر الفساد وسفك الدماء"[1].

فتحصّل ممّا تقدّم، أنَّ أصل خلق آدم كان لأجل أن يكون خليفة الله في الأرض، وقد أعطاه امتيازات تفوق الملائكة وهي تعليمه الأسماء، وأمّا قضيّة الخطيئة، فالتصوّر الأوغسطيني لها أنّها على حدّ ومثل خطايا البشر في عالم الدنيا، وليس الأمر كذلك في القرآن ووفق التصوّر الإسلامي، بل إنَّ آدم كان في عالم الروح غارقًا في التوجّه إلى الله تعالى، ولكنّه أريد له أنْ يكون في الأرض، والحياة في الأرض تستلزم توجّهًا إليها بما تقتضيه الحياة فيها مِن شهوة وغضب وسائر القوى البدنيّة، فآدم «كان مخلوقًا ليسكن الأرض، وكان الطريق إلى الاستقرار في الأرض هذا الطريق، وهو تفضيله على الملائكة لإثبات خلافته، ثمّ أمرهم بالسجدة، ثمّ إسكان الجنّة والنهي عن قرب الشجرة المنهيّة حتّى يأكلا منها فيبدو لهما سوآتهما فيهبطا إلى الأرض، فآخر العوامل للاستقرار في الأرض، وانتخاب الحياة الدنيويّة ظهور

1 - العلاّمة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، 1: 30.

السوأة، وهي العورة[1] بقرينة قوله تعالى: ﴿**وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ**﴾[2]، وهو التمايل الحيواني ويستلزم التغذّي والنمو أيضًا"[3].

هذا مضافًا إلى أنَّ أوغسطين لم يعط العدالة نصيبها من التحليل والتفسير في مدينته الإلهيّة، بل جعل "محبّة الله" هي الأصل الحاكم والعدالة أمر تابع له، ولكنّنا بالتصوير السابق للعدالة الشاملة لكلّ أبعاد النفس والاجتماع، يظهر لنا أنَّ ما ذكره ناقص، وأنَّ المحبّة والعبادة والإيمان في الواقع هي مرتبة من مراتب العدالة بالمعنى العميق والشامل.

● ثالثًا: اليوتوبيا المستندة إلى العلم التجريبي/الطبيعي

1 - بيان المسألة

يعتبر كتاب «أطلنطس الجديدة» من الأعمال الفريدة من نوعها في تصوير يوتوبيا مختلفة عن تلك التي نظّر إليها فلاسفة اليونان أو الفلاسفة الدينيّون- المسيحيّون-، حيث جعل مؤلّفها، وهو فرانسيس بيكّون، أحد الآباء المؤسّسين للعلم التجريبي في عصر النهضة، الركن الأساسي الذي تتكئ عليه المدينة الفاضلة هو "العلم الطبيعي"؛ وذلك لأنَّ غاية السعادة تكون بسيادة العلم، وأهمّ علم هو الذي يعرّفنا على علل الأشياء وحركاتها

1 - من حيث أنَّها تشير إلى التوجّه إلى الحاجات الطبيعيّة الشهوانيّة للإنسان من حيث حياته الأرضيّة.

2 - سورة طه 121.

3 - العلّامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، 1: 127.

الخفيّة[1]. وبحسب بعض المؤرّخين لليوتوبيا "أطلنطا الجديدة هي في الواقع حلم تعويضي يتّحد فيه العلم والقوّة ويمسكان بزمام أعلى سلطة في الحكم. إنّه الحلم بمختبرات هائلة، وأعداد كبيرة مِن المساعدين، وموارد ماليّة ضخمة"[2].

وبعبارة مختصرة، إنَّ هذا الحلم واليوتوبيا عند بيكّون عوّضت العالم الطبيعي مكان الحكيم والفيلسوف الذي جعله أفلاطون محور الحكم في مدينته الفاضلة، وتبريره في ذلك أنَّ سعادة البشر متوقّفة على معرفة علل الأشياء الماديّة، والتي يتمّ مِن خلالها استخراج البركات والمنافع، وبالتالي تحقيق السعادة، فهي يوتوبيا مغرقة في التصوير المادّي للحياة البشريّة، وجعله القوّة حليفة للعلم بالطبيعة.

2 - النقد في ضوء المهدويّة

قضيّة «العلم» الطبيعي التي شغلت مفكّري عصر النهضة وفلاسفة الطبيعة التجريبيين، جعلت أذهان هؤلاء الفلاسفة تتوجّه فقط إلى المدينة الفاضلة الماديّة، وأهملت الجانب المعنوي الأصيل في الحياة البشريّة، ولذا كانت «أطلنطا الجديدة» مدينة جافّة لا تضفي المعنى على الحياة الإنسانيّة.

1 - ويل ديورانت، قصّة الفلسفة، ترجمة: أحمد الشيباني، دار القارئ العربي، القاهرة- مصر، 1994، صفحة 177.

2 - ماريا لويزا برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، مصدر سابق، صفحة 188.

وأمّا المجتمع المهدوي، فوفق ما قدّمنا، يكون مستوى الازدهار المادّي والطبيعي فيه تابعًا – في أحد علله وأسبابه – إلى التقوى والمعنويّات، وأنَّ إخـراج الأرض بركاتها يتأثّر بشـكل كبير لا بمعرفة البـشر العلوم الطبيعيّة فقط بل بجانبهم الروحي:

قَالَ اللَّهُ جَلَّ في عُلاه: ﴿**وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا**﴾ الجن (16).

وقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِن رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ**﴾ المائدة (66).

وقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا**﴾ نوح (10-12).

وهنـاك أيضًـا قضيّة أخرى ترجـع إلى أنَّ المعرفـة عمومًا في المجتمع المهـدوي، تتمحور حول معرفة الله تعالى والعلم بأسـمائه وصفاته بكلّ مراتـب العلم العقـلي والروحي، وهي مِن العلـوم والمعارف التي يمكن القول بأنّها – مضافًا إلى محوريّة العدالة الشاملة- تعدّ مِن أركان المجتمع، فالأمّة بأفرادها في ارتقاء دائم بما يمكن أنْ نسمّيه " تحمّل العلم الإلهي" والذي بـه تتحقّق حقيقة حياتهم المعنويّة والحقيقيّـة، وهذا ما أشرنا إليه سـابقًا عند الحديث عن كون وجود الحجّة في الأرض متفرّعًا على حفظ العلـم الإلهي ونقله على مـا ورد في حديث أمير المؤمنين عليه السـلام لكميـل بن زياد، حيث جاء فيه «يَا كُمَيْلُ هَلَـكَ خُزَّانُ الأَمْوَالِ وهُمْ أَحْيَاءٌ

ـ والْعُلَـمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْـرُ ـ أَعْيَانُهُمْ مَفْقُـودَةٌ وأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُـودَةٌ [...] اللَّهُمَّ بَلَى لاَ تَخْلُـو الأَرْضُ مِن قَائِم لِلَّه بِحُجَّة ـ إِمَّا ظَاهِراً مَشْـهُوراً وإِمَّا خَائِفاً مَغْمُوراً ـ لِئَلاَّ تَبْطُـلَ حُجَجُ اللَّه وبَيِّنَاتُه ـ وكَمْ ذَا وأَيْنَ أُولَئِـكَ أُولَئِـكَ واللَّه الأَقَلُّونَ عَـدَداً ـ والأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّـه قَدْراً ـ يَحْفَظُ اللَّـه بِهِمْ حُجَجَه وبَيِّنَاتِـه حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُـمْ ـ ويَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْـبَاهِهِمْ ـ هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَـلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ ـ وبَـاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ واسْـتَلاَنُوا مَا اسْـتَوْعَرَه الْمُتْرَفُونَ ـ وأَنِسُوا بِمَا اسْـتَوْحَشَ مِنْه الْجَاهِلُونَ ـ وصَحِبُـوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الأَعْلَى ـ أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّه فِي أَرْضِه والدُّعَاةُ إِلَى دِينِه ـ آه آه شَـوْقاً إِلَى رُؤْيَتِهِمْ ـ انْصَرِفْ يَا كُمَيْلُ إِذَا شِئْتَ.»[1]

● رابعًا: يوتوبيا محوريّة اللذّة

1 - بيان المسألة

يوتوبيـا توماس مور، كما ذكرنا سـابقًا، تدخل في عداد الأدب اليوتوبي الذي يعتني بتفاصيل الحياة اليوميّة لليوتوبيين، من حيث ملبسهم ومأكلهم وعدد سـاعات عملهم وغير ذلك، ولكنْ لا شـكّ أنّنا بإمكاننا اسـتخراج بعض البنى التحتيّة الفكريّة والفلسفيّة التي تحكم المدينة المثلى عنده.

لم يبـدِ توماس مـور أهميّة فائقـة للعقائـد والآراء الفلسـفيّة الواضحة عند اليوتوبيين، فالفلسـفة والآراء المتعلّقـة بالمنظومة الأخلاقيّة عندهم،

1 - المصدر نفسه: 496- 497

هي مسألة نقاش وحوار لا أكثر[1]، وإنْ كانوا يميلون بشكل واضح إلى اهتمامهم بموضوع «السعادة» وربطه باللذّة[2]. ومِن هنا يستفيض توماس مور ببيان آرائهم حول اللذّة التي تعتبر العنصر الرئيس في تحقيق السعادة بحسب جزيرته اليوتوبيّة. وأمّا تعريف اللذّة فهي «كلّ حركة وحالة للجسم أو العقل يجد فيها الإنسان سرورًا طبيعيًّا»[3].

وأمّا تفاصيل الالتذاذ والسعادة في يوتوبيا مور، فيمكن اختصارها ضمن النقاط الآتية:

1 - القانون تابع لتحقيق اللذّات والسرور، «ومِن هنا يرون أنَّ مِن الواجب احترام، لا العقود التي تبرم بين الأفراد فحسب، بل أيضًا القوانين العامّة، الخاصّة بتوزيع السلع الحيويّة، أي مادّة اللذّة»[4].

2 - الاهتمام باللذّة العقليّة، حتّى إنّه يصوّر قيمًا مِن قبيل المروءة والإحسان للآخرين على أنّها تجلب لذّة عقليّة أفضل وأعلى مِن لذّة الاحتكار والاستفادة مِن المنافع دون إنفاقها، "أنْ تأخذ شيئًا مِن عندك وتعطيه للغير، فواجب مِن واجبات الإنسانيّة والمروءة، التي لا تأخذ منفعة أبدًا دون أنْ تردّها، فأنت تعوّض عن ذلك بعود النفع إليك، وأيضًا الإحساس الذاتي بالعمل الصالح، فتذكُّر حبّ وحسن نيّة أولئك الذين أسديت إليهم معروفًا، يمنح العقل قدرًا مِن اللذّة أكبر مِن اللذّة

1 - توماس مور، يوتوبيا، مصدر سابق، 174.
2 - المصدر نفسه.
3 - المصدر نفسه 177.
4 - المصدر نفسه، 176- 177.

الجسديّة التي حرمت نفسك منها"[1].

3 - التمييز بين اللذّة الكاذبة واللذّة الحقيقيّة، وذلك أنَّ اللذّة الزائفة هي تلك التي تحقّق شعورًا بالالتذاذ دون أنْ يكون هذا الشعور مستندًا إلى طبيعة الشيء في نفسه، مثل الالتذاذ بالأحجار الكريمة أو الالتذاذ بالألبسة الفاخرة وما إلى ذلك، وكون هذه الأمور "تثير في الحواس شعورًا بالمتعة (ممّا تصنعه اللذّة على ما يبدو) لا يجعلهم يغيّرون مِن رأيهم شيئًا، فالاستمتاع بهذه الأشياء لا يأتي مِن طبيعة الشيء ذاته، بل مِن العادة المنحرفة لتلك الشعوب، إذ يجعلهم هذا الميل الخاطئ يتقبّلون المرّ على أنّه حلو، كما تظنّ النساء الحوامل في فترة الوحم أنَّ الزفت والشمع أحلى مِن العسل"[2].

4 - يقسّم اليوتوبيّون – كما يبيّن توماس مور- اللذّة إلى لذّة جسديّة ولذّة روحيّة، واللذائذ الروحيّة هي "الذكاء والمتعة الناتجة مِن تأمّل الحقيقة"[3] مثلاً، ويعتبرون الصحّة والعافية أهمّ اللذائذ الجسديّة[4]، وبطبيعة الحال فإنَّ اللذّة العقليّة مقدّمة على كلّ اللذائذ الحسيّة.

5 - لم يعر توماس مور في مدينته الفاضلة أهميّة كبيرة للدين بقدر ما يحقّق الاشتراكيّة والمساواة بين الناس، فلم تكن له قيمة اعتقاديّة واضحة، فحين يذكر أنَّ اليوتوبيين قبلوا المسيحيّة، يقول "أعتقد أنَّ مِن العوامل

1 - المصدر نفسه 177.
2 - المصدر نفسه 181.
3 - المصدر نفسه 181.
4 - المصدر نفسه 183.

التـي كان لهـا وزن ليـس بقليل أيضًا، ما قد سـمعوه مِن أنَّ المسـيح سُرّ باشـتراكيّة الحياة بين تلاميذه، وأنَّ تلك الاشـتراكيّة مازالت قائمة في أكثر المجتمعات المسيحيّة أصالة"[1].

2 - النقد في ضوء المهدويّة

لا تشـكّل «اللذّة» بكلّ أقسـامها في المجتمع المهدوي إلّا أثرًا مِن آثار العلم الإلهي والعدالة الشـاملة التي ذكرناهما سابقًا، وبالتالي فإنَّ تصوير توماس مور لليوتوبيا، لا يسـلم مِن نقد أسـاسي في ضوء المهدويّة، وهو جعـل النتيجة والثمـرة بمنزلة الوازع والسـبب في أصـل حركة المجتمع اليوتـوبي وقيمه، بـل إنَّ اليوتوبيا المهدويّة تجعل الحـراك المعرفي وبناء العدالة في جميع مسـتويات الإنسـانيّة هي الأصل والمحـور، وأمّا اللذّة فهي ثمرة مِن ثمرات هذه الحقيقة. وبعبارة أخرى، في يوتوبيا توماس مور اللـذّة تحتلّ موقع المعياريّة في المجتمـع[2]، وتكون فطرة العلم والمعرفة وكشف الحقائق تابعة لها، وهذا بخلاف اليوتوبيا المهدويّة التي يكون فيها السـعي المعرفي على ضوء أصل (تعليم آدم الأسـماء)، كما بيّناه سـابقًا، أصلاً ومعيارًا وغير تابع للذّة، وإنْ كانت اللذّة تابعة له.

ومِـن الانتقادات الأخرى المتوجّهـة إلى يوتوبيا توماس مور، هو حصر

1 - المصدر نفسه 213.

2 - راجع: بهروز محمدي منفرد، نقد كتاب اوتوبياي تامس مور، پژوهشنامه انتقادى متون و برنامه هاى علوم انسانى، العدد 12، الشهر الأول مِن عام 1399، صفحة 365.

العدالة بالعدالة التوزيعيّة الماديّة والأرضيّة، دون إشارة إلى أصناف أخرى مِن العدالة التي ذكرنا سابقًا أنّها متحقّقة في اليوتوبيا المهدويّة[1].

وبناءً على كلّ ما سبق، يمكننا أنْ نجعل اليوتوبيا المهدويّة مقابل هذه اليوتوبيات وفق الرسم البياني الآتي:

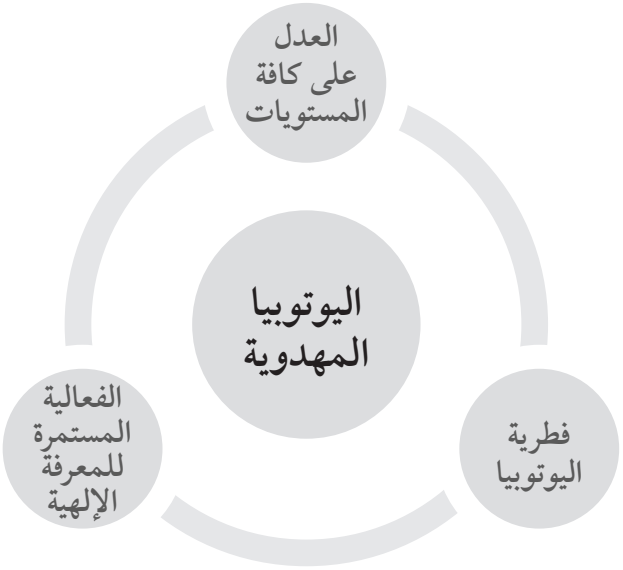

1 - راجع: بهروز محمدي منفرد، پژوهشنامه انتقادی متون و برنامه های علوم انسانی، العدد 12، الشهر الأول مِن عام 1399، صفحة 365.

الفصل الثالث:
نموذج أدب يوتوبي مهدوي

كما ذكرنا سابقًا، إنَّ اليوتوبيات التي قدّمها الفلاسفة والمفكّرون اتّخذت في أغلبها شكلاً أدبيًّا، بحيث اعتمد الكاتب أسلوب المحاورة -كما في جمهوريّة الأفلاطون- أو أسلوب السرد القصصي – كما في يوتوبيا توماس مور- لبيان أبعاد مدينته الفاضلة، ولذا ولكي يكون هذا العمل البحثي كاملاً، نجد أنّه مِن الضروري أنْ يشمل كلا الجانبين:

1 - الأوّل البحث النظري الذي تقدّم في الباب الأوّل التأصيلي والباب الثاني النقدي.

2 -الثاني النموذج الأدبي لليوتوبيا المهدويّة، وهذا ما سيتكفّل به هذا الباب.

ولمّا كان كاتب هذه السطور ليس أديبًا بالمعنى اللائق للكلمة، كان الأدب اليوتوبي الأفضل هو المحاورة؛ لأنّها تكاد تكون وسطًا بين الكلام النظري والسرد القصصي.

النصّ الأدبي المقترح

1 - الورقة الصفراء

« لم يكن الأمل يومًا أمرًا هامشيًّا في حياة البشر، فالإنسان مهما أحاطت به الشدائد، يبقى في داخله شعاع يجعله يعلّق آماله على نهاية سعيدة أو مُرضية، ولذا عدّ بعض الحكماء اليأسَ والكآبة مِن الأمراض النفسيّة التي لا بدّ مِن علاجها، وكأنَّ الرؤية المُعتمة للنهايات هي أحد الأمور التي ينفر منها الإنسان، والتي تعبّر عن خروج عن الطبيعة المستقيمة والصحيّة، كما يكون الإحساس بالمرارة عند تذوّق العسل أمرًا مَرَضيًا وخروجًا عن الذائقة

المستقيمة، ولكنْ في الوقت نفسه ألا يُعدّ "خيال" الأمل وأسطوريّته وعدم واقعيته نوعًا مِن الكذب الذي لا يلغي الكآبة ولا يحقّق الأمل عند فاقده؟ هل يقنع فاقد الأمل بوهم الأمل؟ حتمًا لا؛ لأنَّ الأمل الموهوم لا يقلّ عن عدم الأمل، كما أنَّ مَن أشبع نفسه بأوهام الأكل والشرب، لا يصبح شبعان مرتويًا.

فالأمـل الذي تصبو إليه النفـس، هو أمل مقـرون بالواقعيّة، وليس أملاً أسطوريًّا، كاذبًا، هذه هي حقيقة النفس في أحد ميولها الجبلّية، ولا نتكلّم فقط عن أمل نهائي شامل لحياة الإنسان والبشرية، بل حتّى الآمال الجزئيّة هـي عنصر أسـاسي في وجدان الإنسـان، فالأمل بالارتـواء أمر ضروري لحركة العطشـان، والأمل بالنجاة هو أحد أسباب سعي المأزوم أو الغريق لأنْ يتحرّك، وكذا أمل الإنسان مِن حيث هو إنسان - لا مِن حيث هو جائع أو غريق- بل الإنسان في إنسانيّته، له أمل وراء جزئيّات حياته اليوميّة، أمل بأنْ يخلو عالمه الذي يعيش فيه مِن الضيق والمآسي ومِن الظلم والجور».

هـذا النصّ الذي عثر عليه "أويس" بين بعض الكتب في مكتبة الجامعة شـكّل أمـرًا صادمًا له، وخاصّة أنّـه مكتوب على ورقة صفـراء تفوح منها رائحـة زمن قديم كتب فيه، أخذ الورقـة وجلس على أحد مقاعد المكتبة، وصار يسجّل بعض الأسئلة:

- أيّ أمـل يملأ وجدان الإنسـان بحيث يشـعر أنّه لو تحقّـق لكان فيه سعادته وحياته الطيّبة؟
- هل أمل الحياة المستقرّة الخالية مِن الاعتداءات الاجتماعيّة والمظالم الاقتصاديّة أمر يشكّل عمق الأمل الإنساني؟

■ هــل توفير الرفاهية بين الناس يســكّن روعهم ويجعلهم يعيشــون في مدينة فاضلة ومستقرّة؟

■ هــل الســعي وراء اللــذّة بشــتّى أنواعها هو ما تســعى إليــه النفوس الإنسانيّة؟

2 - مع أستاذ الفلسفة اليونانيّة

خطر على باله أنْ ينقل هذه الأســئلة إلى بعض أساتذته، فتوجّه أوّلاً إلى أســتاذ الفلســفة اليونانيّة، فأعطاه النصّ، حيث قرأه الأســتاذ على عجالة، وأجابه دون تفكير:

■ نعم، هذا بحث اليوتوبيا والمدينة الفاضلة، لقد عالجه فلاسفة اليونان والإغريق بشتّى الوسائل.

■ وما كان جوابهم أيّها الأستاذ؟

■ ذكروا أنَّ الأمر بســيط، علينا أنْ نعرف أوّلاً أنَّ الإنســان في هذا العالم لا تتعلّق آماله إلّا بالأمور التي لا يمكن أنْ يحقّقها بمفرده، فهو كائن مليء بالحاجات التي تزدحم عليه كلّ يوم، مِن حاجة المأكل والملبس والسكن وغير ذلك، وهذه الحاجات ألجأت الإنســان منذ فجر التاريخ لكي يشكّل اجتماعًا ومدينة تتوزّع فيها الأدوار، بحيث يؤمّن لي شخص غيري طعامي وأنا أؤمّن له بدوري لباسه – كما لو كنتُ خيّاطًا- وهكذا تتوزّع الأدوار.

■ ولكنْ أيّها الأستاذ، ماذا نفعل لو احتكر صانع الطعام الحنطة والقمح، وجعــل الناس في حاجــة زائدة، ولم يكن ذا أخلاق كافيــة تجعله يبذل ما يحصد مِن قمح؟

■ نعم، ولأجل ذلك لا بدّ مِن قانون يحكم المجتمع، وهنا نشـأت فكرة القانون الذي يُعنى بتنظيم هذه العلاقات، وهو قانون لا بدّ أنْ يكون عادلاً بحيـث ينظّم حياة الناس ويمنع الاحتكار وغير ذلك، مِن خلال العقوبات المفروضة.

■ فإذا طبّقنا القانون العادل وأعطي كلّ إنسان نصيبه مِن الحاجات، هل نصل إلى مدينة فاضلة يكون التواجد فيها مشبعًا لهذا الأمل الإنساني؟

■ هكذا ذكر سـقراط في محاورة سـجّلها أفلاطون، وذكر تفاصيل كثيرة أخرى تتعلّق بتقسيم الأعمال وشكل الحكم وكيفيّة العلاقات الاجتماعيّة.

■ ولكـنْ أيّها الأسـتاذ، إنَّ الأمر يعالج حياة الإنسـان ببعدها الاجتماعي المادّي، فلو سـلّمنا أنَّ الإنسان قد أُشبعت حاجاته، ولم يعتد عليه أحد ولم ينقص مِن ماله أو أكله أو لباسه شيء، فهل تسكن نفسه ويمتلئ قلبه بالرضا؟ فإنّنا نجد أنَّ كثيرًا مِن الأغنياء مثلاً لا يعيشون الهناء، ومبتلون بالكآبة، ولديهم شحّ في الرضا والحياة الطيّبة مع أنّهم "أفلاطونيّون" في حياتهم؟

■ نعـم، كلامـك صحيح يا أويـس، ولعلّ لأجل هـذا الأمر -لا حصرًا- نشأت يوتوبيات أخرى، تركّز على الجانب الروحي في الإنسان، وتجد أنَّ المدينة الفاضلة هي مدينة "الله" ومدينة المعاني الروحيّة والإيمانيّة، وإذا أردت أنْ تبحث عن ذلك اذهب إلى أسـتاذكم في فلسفة القرون الوسطى فهو يفيدك؛ لأنَّ يوتوبيات الروحانيّة نشأت في ذلك العصر بشكل واضح.

3 - مع أستاذ القرون الوسطى

ذهب «أويس» بشـكل مباشر إلى أسـتاذه المختصّ في فلسـفة القرون

الوسـطى، واتّفقا على موعد في اليوم التالي بين حصص الدراسة للتداول في أسئلته، وفي اليوم التالي، وعلى الموعد، بادر «أويس» بالسؤال:

■ أسـتاذي العزيز، بعد المعذرة عـلى اقتطاع بعض الوقت منكم، فإنّني كنت أبحث عن اليوتوبيا الدينيّة أو الروحانيّة.

■ لقد ذكّرتني بكتاب "مدينة الله" لأوغسـطين، هذا القدّيس الفذّ الذي عاصر مشكلات روما في عصره واتهامات الوثنيين بأنّ تبنّي الدولة للديانة المسـيحيّة لم يجلب سـوى المشكلات والمآسي، فسـعى مِن خلال هذا الكتاب للردّ على هذه الإشكالات.

■ وماذا ذكر فيه؟

■ أفـكار هذا الكتاب كثيرة ومتداخلة وليس لها مسـار واحد، ولكنْ في خصوص بحث الأمـل واليوتوبيا، ذكر أنَّ اليوتوبيا لا يمكن أنْ تتحقّق في مدينة الأرض قبل عودة المسـيح، بل إنَّ البشر في ذاتهم غير قادرين على الوصـول إلى أمل متحقّق يملأ وجودهم؛ لأنّهم في أصل حياتهم الأرضيّة مبتلـون بالخطيئة التي ارتكبهـا آدم - كما يقول- وبالتالي إنَّ مدينة الأرض هي مدينة شـيطانيّة ملؤها الشـهوات والنزوات، وأمّا مدينة الله فهي مدينة ننتظرها عندما يأتي المسيح ويفصلها عن مدينة الشيطان.

■ يعني كانت نظرته لليوتوبيا نظرة انتظار لتغيير طبيعة الحياة الأرضيّة؟

■ نعم، يمكننا القول كذلك.

■ على أيّ حال، ما هي أوصاف "مدينة الله" عنده؟

■ إنّها مدينة قائمة على العبادة ومحبّة الله، أي كما يقول "الحياة بحسب الروح" لا الحياة بحسب الجسد.

■ ولكنْ هذا أقرب ما يكون إلى أمل أسطوري، بمعنى أنَّ إهمال التنظير للجسد والعدالة الاجتماعيّة مثلاً، هو كحبّة دواء مسكّن لآمال وآلام البشريّة، وبالتالي ستكون الحياة الأرضيّة ذاتها شرًّا لا خير فيها، وكيف يجتمع هذا مع خلق العالم مِن قبل الله تعالى؟ فخلقه له سيكون أشبه بالعبث.

هنا تذكّر «أويس» النصّ الذي وجده في المكتبة، حيث جاء فيه «لأنَّ الأمل الموهوم لا يقلّ عن عدم الأمل، كما أنَّ مَن أشبع نفسه بأوهام الأكل والشرب، لا يصبح شبعان مرتويًا"، ولكنّه لم يذكر شيئًا للأستاذ، وشعر أنَّ ما ذُكر في "مدينة الله" وإنْ كان يعالج إشكاله الأساسي حول نقصان يوتوبيا الجمهوريّة الأفلاطونيّة، ولكنّه عالج المشكلة بإيجاد مشكلة جديدة.

■ أيّها الأستاذ الفاضل، ما هي أصناف اليوتوبيات التي طُرحت غير تلك التي طرحها أفلاطون وأوغسطين؟

■ نعم، مع تغيّر الزمان والانتقال لعصر النهضة، نجد أنَّ التوجّه إلى يوتوبيا أوغسطين صار خافتًا بسبب تغيّر سؤال الزمن، بدأت تظهر يوتوبيات مناسبة لأسئلة عصر النهضة، مثل يوتوبيا توماس مور، ويوتوبيا فرانسيس بيكّون.

■ وهل يمكنني سؤالك عنهما؟

■ لا أظن أنَّ لدي الوقت وسعة المعرفة المطلوبة، إذا أردت ذلك فاذهب إلى أمين المكتبة نفسه، فهو في الآونة الأخيرة كان يكثّف قراءاته حول هذه العصور.

4 - مع أمين المكتبة

أمـين المكتبة اتّفق مع أويس أن يلتقيا بعـد انتهاء دوام الجامعة في آخر أيام الدراسة الأسبوعيّة، وهذا ما جرى:

■ إذًا، يا أمين مكتبتنا، ماذا عن توماس مور؟

■ توماس مور...أديب اليوتوبيا.. نعم، كتابه مِن الكتب الأدبيّة الجميلة، اسمه "اليوتوبيا"، وهو أوّل مَن استعمل هذا المصطلح.

■ «كتـاب أدبي»؟ أليـس كتابًـا فلسـفيًّا ككتـاب أفلاطـون المسـمّى "الجمهورية" أو كتابًا دينيًّا ككتاب "مدينة الله" لأوغسطين؟

■ لا لا، هو كتب كتابًا يصف فيه البنية الفوقيّة لجزيرة فاضلة، أي طريقة حياتهم في تفاصيلها اليوميّة.

■ يعني وصف كيف يأكلون وماذا يشربون وهكذا؟

■ نعم، كتبًا وصفًا دقيقًا لهذه الأمور، ولكنّه وصف يشـبه عصره، فكتب عن العبيد والأحرار، وكتب عن ديانة المسيحيّة، وكتب عن كيفيّة زراعتهم بطريقة مناسبة لعصره.

■ ألم يكتب تحليلاً للبنى التحتيّة لجزيرته الفاضلة؟

■ يمكننـا أنْ نصطاد مِـن عباراته البنى التحتيّة الفلسـفيّة والفكريّة التي تقوم عليها هذه اليوتوبيا؟

■ جيّد، فما الذي يجعل اليوتوبيين عنده يعيشون حياة فاضلة وطيّبة؟

■ من خلال مراجعتي لكتابه وجدته يركّز على "اللذّة"، أي إنَّهم يوتوبيّون لأنّهـم يبحثـون عن اللذّة ولا يشـغلون بالهم بأمور متعبـة لا لذّة وراءها، فاللذّة هي السرور والسـعادة، وليسـت المدينة الفاضلة أو اليوتوبيا إلاّ ما

تحقّق اللذّة لأبنائها.

■ ولكنْ كأنّنا بذلك نرجع إلى جمهوريّة أفلاطون في تنظيم الحياة الاجتماعيّة؟

■ ليس كذلك بالدقّة، فهم لم يعطوا أهميّة قصوى للقانون والتنظيمات القانونيّة والمؤسّسات كما فعل أفلاطون، بل قالوا إنَّ السعادة تكمن أصلاً بقلّة القوانين وقلّة المؤسّسات، مضافًا إلى أنّهم فضّلوا اللذّة العقليّة على اللذّة الجسديّة.

■ اللذّة العقليّة؟ ماذا يقصد توماس مور مِن ذلك؟

■ اللذّة العقليّة هي التي تجعلنا نسرّ بأمور وجدانيّة داخليّة دون حصول متعة حسيّة، مثل الإنفاق على الفقراء، أنت عندما تقتطع مِن طعامك وتعطي الفقير، تقلّ لذّتك الحسيّة ولكنّك تشعر بلذّة روحيّة أو وجدانيّة أو فلنقل عقليّة.

■ ولكنْ أليس الالتذاذ في نفسه يجعلنا نغفل الحقائق لحساب المتعة؟ يعني أنا أبحث عن وجود الله مثلاً لأجل الالتذاذ بالعقل والفكر أم لأجل سؤال وجودي في داخل نفسي؟

■ في الحقيقة، وفق ما يطرح مور في كتابه، ولو على نحو التلميح، إنَّ اليوتوبيين لا يبالون كثيراً بمعرفة الحقّ لأجل الحقّ، ولذا لم يكن موضوع الديانات عندهم مسألة محوريّة في حياتهم، واعتبروا أنَّ طلب الفضيلة بما هي هي دون المنفعة واللذّة ضرب مِن الجنون.

هنا توقّف أويس، حيث لم يجد نفسه مقتنعًا بأنَّ آمال البشرية حدّها الالتذاذ، ولكنّه عدل مباشرة إلى «فرانسيس بيكّون» وسأل عن اليوتوبيا

التي طرحها، فأجابه أمين المكتبة:

■ فرانسيس بيكّون كتب كتابًا باسم «أطلنطس الجديدة» يكان يكون توصيفًا لمختبر كبير تؤدّى فيه التجارب الطبيعيّة والكيميائيّة والفيزيائيّة وغير ذلك لأجل اكتشاف قوانين الطبيعة.

■ هذه يوتوبيا؟!

■ نعم، وإنْ كان البعض يشكّك في ذلك، ولكنّه باعتباره أبًا مِن آباء العلم التجريبي، طرح رؤية مفادها أنَّ السعادة تكمن في استخراج كنوز الأرض، وخيراتها، وهذا متوقّف على معرفة علل الأشياء في الطبيعة، ومَن أجدر بهذه المهمّة مِن العلوم الطبيعيّة التجريبيّة؟ ولذا قال إنَّ العلم هو القوّة، وأنَّ العلماء أهمّ مِن الحكّام في تحقيق المدينة الفاضلة.

■ ولكنْ للبشر حاجات معنويّة وروحيّة، ولديهم آمال معلّقة ومنتظرة لتحقيق الطمأنينة غير هذه الأمور، ثم إنّنا ماذا نفسّر هذه اليوتوبيا في زمان -بعد زمان بيكّون- حيث اندلعت الحروب العالميّة ولم تكن هذه العلوم بنفسها أمانًا وسكنًا؟.

هنا أخرج أويس الورقة الصفراء، معتذرًا مِن أمين المكتبة أنّه أخذها دون إذنه، وأعطاه إيّاها كي يقرأها، فتبسّم أمين المكتبة، وقال له هذه الورقة هي صفحة مِن كتاب قديم وفريد مِن نوعه، ويا للعجب، هو كتاب يبحث عن "يوتوبيا" مِن نوع آخر.

هنا دُهش أويس، وطلب مِن أمين المكتبة أنْ يحدّثه عن هذه اليوتوبيا الجديدة، فقال له أمين المكتبة: " سأعطيك هذا الكتاب، ولتقرأه بنفسك... هكذا أفضل».

ذهب أمين المكتبة إلى أقصى زوايا المكتبة، واستخرج كتابًا غلافه قديم صافٍ لم يُكتب عليه شيء، ونفض عنه الغبار، وأتى به، وبرفق وضعه على الطاولة أمام أويس، وقال "استمتع بالقراءة".

5 - **اليوتوبيا المهدويّة**

في ليلة مقمرة، حمل أويس الكتاب « المجهول» في حديقة منزله، وبدأ يقرأ:

قَالَ اللَّهُ جَلَّ وعَلَا: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ إبراهيم (24-25).

أصل أصول الدنيا وعالم الطبيعة أنّه امتداد شعاع الغيب والآخرة، وليس أمرًا منقطعًا عن العـوالم الأخرى، فالدنيا هي عالم الحركة والتبدّل، ينتقل فيه البشر مِن حرب إلى سـلم، ومِن حضارة إلى أخرى، ولكنَّ هذه الحركة هي حركة تحت ظلّ عناية الله تعالى، وليست حركة عبثيّة لا غاية وراءها، فاللـه الحكيم المطلـق، والخير المحض، خلق عالمًـا في صلبه وجوهره التبـدّل، وجعـل لنا الإرادة في فعلنـا، ولكنّه محيط بنا وبهـذا العالم، ولا يكـون في الختام إلّا ما يريده، ولا يكون ما يريده إلّا ما يليق بحقيقته، ولا يليق بحقيقته إلّا الخير، وهذا معنى "عاقبة الأمور"، ألم تقرأ قوله تعالى:

قَالَ اللَّهُ جَلَّ وعَلَا: ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾ الحج (41).

فالذيــن يمُكنــون في الأرض، فيقيمــون الصلاة، ويعبدونــه، ولكنْ في الوقت نفســه يأمرون بالمعروف، ويواجهون الظلــم، هؤلاء هم ظلّ عاقبة الأمور التي لله تعالى.

فــلا بدّ من نهاية مشرقة للإنســانيّة تُشــبع آمالهم وتحقّــق فطرتهم، وأمّا النهاية المأساويّة المليئة بالشرّ والظلم، فهي أمر ينفر منه العقل والدليل لا أنّه مجرّد أمر لا تستســيغه مشاعرنا وأمنياتنا وأحلامنا، بل العقل الذي يرى الله تعالى موجودًا حكيمًا وله العناية المفاضة عنه، والتي لا تكون إلّا من طبيعة الخير، يحكم بذلك، وقد فصّل حكماء الإســلام في هذا الأمر كثيرًا فيما يسمّى عندهم بحث العناية والجود.

وليس نزول آدم إلى الأرض إلّا جزءًا من إرادة الله تعالى لجعله خليفة لائقًا له تعالى، يخرج من أبنائه الأنبياء والصدّيقون والمعصومون، الذين يزيّنون الأرض بالإيمان، فالزينة زينة الإيمان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ**﴾ الحجرات (7).

فلا تســمع لمن يقول إنَّ أصل الهبــوط إلى الأرض خطيئة وشرّ، بل فيه بركات وحمل أمانة الجميل المطلق تعالى.

بل إنَّ نزوله كان مقدّرًا من الأصل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ**﴾ البقرة (30)، وهو خليفة الله في هذا العالم، هل تعلم ما معنى خليفة الله؟

هــو الــذي يُظهر أمره وحكمه ويكــون تجليًّا لأســمائه وصفاته، ويكون كامــلاً في العلم والعمل والمعرفة الأتــم، ومن هنا ذكر الحكماء أنَّ خليفة

اللــه تعالى هو الــذي يعرفه على الوجه التامّ، وهو الــذي يأخذ على عاتقه قيادة البشريّة إلى هذه المعرفة والحقائق عبر إقامة مجتمع العدل والقســط الذي يفتح لهم باب المعرفة.

فالعمل في الدنيا يكون عملاً للآخرة أيضًا، فالدنيا مرتّبة من العوالم المتّصلة ببعضها، وتحقيق العدالة والقسط فيها غاية، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الحديد (25).

ولكنْ هذه الغاية ليست غاية أرضيّة فقط، بل هي غاية في طول وعلى مسار غاية الطهارة والتزكية لقلوب البشر، وهي غاية العبوديّة، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وعَلَا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات (56).

إنَّ تحقيق الأرض الطيّبة، هو ككلمة طيّبة، أصلها أرضي وثابت وفطري، ولكنّها متّصلة بالسماء.

إنَّ بركات الأرض تخرج بالإيمان والتقوى، ومِن دون الإيمان سترتدّ عليهم قاحلة، وسيضعف نسلهم، وتجفّ أرضهم، فالسماء والأرض عباد مطيعون لله، قَالَ اللَّهُ جَلَّ في عُلاه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ فصّلت (11)، وهي ذات روح عابدة، لا تمكّن الإنسان مِن نفسها إلّا بعدل منه، ولذا أخرجت الأرض بركاتها للمستقيمين على الطريقة، قَالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ الجن (16)، وقَالَ جَلَّ في عُلاه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ

لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ المائدة (66).

في هذه اليوتوبيا تختلط الأرض بالسماء؛ أي تمتدّ عدالة الأرض لتشمل عدالة القيم والاعتقاد والإيمان، ويسعى المجتمع ليستقيم في معرفته وملكاته وسلوكه، ليس ظهور مهدي آخر الزمان - عجّل الله ظهوره- كظهور مصلح اجتماعي أفلاطوني، بل ظهوره ظهور العدل الشامل لكلّ مراتب الأمل الإنساني، وهو أمر واقعي ومحتوم، المهدي مِن المحتوم، وروي عن الإمام الجواد عليه السلام: «إنّ القائم مِن الميعاد والله لا يخلف الميعاد»[1]، أما تقرأ ما ذكرنا أنَّ وهم الأمل ليس لا كعدم وجود الأمل، وأنَّ الذي يملأ وجدان البشريّة هو واقعيّة الأمل وحتميّته لا توهمه والأمنية المحضة؟!

أغمض أويس عينيه وتفكّر في هذا الكلام، إنّها يوتوبيا مِن نوع آخر، شيء آخر، شيء يليق بآمال الإنسان.

1 - النعماني، الغيبة، مصدر سابق، صفحة 302.

الخاتمة

اليوتوبيا في الفكر العالمي تجمع بين عدّة أمور ممتزجة ببعضها، مِن قبيل الفلسفة والأدب والخيال والدين، ويمكن للقارئ مِن خلال ملاحظته المقارنة، التي ذكرناها في الباب الثاني، أنْ يلاحظ كيف أنَّ موضوع الحياة الأفضل والمدينة المثلى اتّخذه المفكّرون على طول التاريخ قضيّة حقيقيّة لبثّ كثير مِن الكتابات بشتّى أصناف الأساليب، فبعضهم وجد القصّة طريقًا لتصوير مجتمعه المثالي، وبعض آخر وجد المحاورة، وثالث وجد الدين والنصوص الدينيّة والتأمّلات الصوفيّة لذلك، وبعضهم اختار البحث الفلسفي العقلي، كلّهم كانوا يسعون وراء العثور على نموذج «أفضل» للحياة.

وقد حاولنا في هذا المتن أنْ نقدّم مقدّمة قصيرة جدًا حول ثلاثة أمور:

الأمر الأوّل: تأصيل الرؤية الإسلاميّة عمومًا، والإماميّة خصوصًا، حول اليوتوبيا والمجتمع المثالي، وذلك بالاعتماد على الفكر الفلسفي والنصّ الديني.

الأمر الثاني: رصد وتوصيف اليوتوبيات المطروحة على طول التاريخ، ومحاولة استخراج العناصر المضمونيّة لها؛ أي تلك المفاصل التي تشكّل بنية تحتيّة فكريّة وفلسفيّة، والتي على أساسها كتب المفكّرون يوتوبياهم الخاصّة، ومِن ثَمَّ وبعد هذا الرصد والتوصيف، عمدنا إلى المقارنة بين هذه المضامين والرؤية المهدويّة التي أسّسنا لها في الأمر والباب الأوّل.

الأمر الثالث: وهو الذي شكّله الباب الثالث في بحثنا، حيث وجدنا

ضرورة على مستوى الأدب اليوتوبي المهدوي، ولعلّه لا يوجد أيّ نصّ أدبي يوتوبي مهدوي عند الشيعة الإماميّة، وجدنا مِن الضروري أنْ نقدّم نموذجًا على هيئة المحاورة، ولعلّه يفتح الباب لأنْ يكتب الأدباء الذين لهم أقلام قويّة مِن الناحية الأدبيّة أدبًا يوتوبيًّا مهدويًّا، وهو مِن مصاديق محاسن الكلام الذي تجد النفس انسجامًا بينها وبينه، ويقرّب أكثر النفوس إلى حقيقة المهدويّة والاتصال بالإمام الغائب عليه السلام.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، نشر البلاغة، قم -إيران، 1375 هجري.
- ابن سينا، الشفاء- الإلهيّات، مكتبة السيّد المرعشي النجفي، قم- إيران، 1404 هجري.
- أبـو نصر الفارابي، آراء أهـل المدينة الفاضلة، دار المـشرق، بيروت- لبنان، 1986.
- أفلاطـون، الجمهوريّة، ترجمة فؤاد زكريّا، مؤسّسـة هنداوي، القاهرة- مصر، 2023.
- أوغسـطين، مدينة اللـه، ترجمة: الخورأسـقف يوحنّا الحلـو، دار المشرق، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية، 2007.
- بهروز محمدي منفرد، پژوهشـنامه انتقادی متون و برنامه های علوم انسانی، العدد 12، الشهر الأول مِن عام 1399
- تومـاس مور، يوتوبيا، ترجمة: أنجيل بطرس سـمعان، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة- مصر.
- جان فرانسوا دورتيي، فلسفات عصرنا: تيّاراتها، مذاهبها، أعلامها، وقضاياها، ترجمة: إبراهيم صحراوي، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت- لبنان، 2009.
- روح الله الخميني، صحيفة الإمام (ترجمه عربی)، 22جلد، موسسـه تنظيم و نشر آثار امام خمينی (س) - ايران - تهران، چاپ: 1، 1429 ه.ق.
- صدر الدين الشيرازی، تفسير القرآن الكريم. قم - ايران: بيدار، 1366 هجري

شمسي.

■ صدر الدين الشيرازي ، سه رساله فلسفى (متشابهات القرآن - المسائل القدسية - أجوبة المسائل) (أجوبة المسائل). قم - ايران: دفتر تبليغات اسلامى حوزه علميه قم، 1387 هجري شمسي.

■ صدر المتألهين الشيرازي، أسرار الآيات، انجمن حكمت وفلسفه اسلامي، طهران- إيران، 1360 هجري شمسي.

■ عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، 1996.

■ عفيان محمّد، التوظيف السياسي لليوتوبيا: القدّيس أوغسطين نموذجًا (رسالة جامعيّة)، جامعة الجزائر، 2009.

■ لايمان تاور سارجنت، اليوتوبيا، ترجمة: ضياء رواد، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة- مصر، 2016.

■ ماريا لويزا برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة: عطيّات أبو السعود، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، 1997.

■ مجموعة مؤلّفين، اليوتوبيا والفلسفة، الرابطة العربيّة الأكاديميّة للفلسفة، الرباط- المغرب، 2014.

■ محمّد باقر الصدر، المدرسة القرآنيّة (موسوعة السيّد الشهيد الجزء 19)، مركز الأبحاث التخصصيّة للشهيد الصدر، قم – إيران، 1421 ه.

■ محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار الجامع لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسّسة الفاء، بيروت، 1983.

■ محمّد بن ابراهيم النعماني، كتاب الغيبة، نشر صدوق، طهران- إيران، 1397

هجري.

■ محمّد بن الحسن الطوسي، كتاب الغيبة، دار المعارف الإسلاميّة، قم- إيران، 1411 هجري.

■ محمّد بن علي ابن بابويه، كمال الدين وتمام النعمة، تهران - ايران: دار الكتب الإسلاميّة، 1395 هجري شمسي.

■ محمّد بن علي الصدّوق، كمال الدين وتمام النعمة، تحقيق: علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلاميّة، طهران- إيران، 1395 هجري.

■ محمّد بن يعقوب الكليني، الكافي، دار الحديث، قم -إيران، الطبعة الثالثة، 1388 هجري شمسي.

■ محمّد تقيّ المجلسي، روضة المتّقين في شرح مَن لا يحضره الفقيه. ايران -: بنياد فرهنگ اسلامى كوشانپور، 1406 هجري.

■ محمد حسين الطباطبايى، رسالة الولاية، موسسه اهل البيت (عليهم السلام) - ايران - قم، 1360 ه.ق.

■ محمّد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، 1390 هجري.

■ نهج البلاغة، إعداد: الشريف الرضي، تحقيق: صبحي الصالح، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان.

■ ويل ديورانت، قصّة الفلسفة، ترجمة: أحمد الشيباني، دار القارئ العربي، القاهرة- مصر، 1994.

■ يدالله يزدان بناه، مختصات حكمت متعاليه، انتشارات آل أحمد (ص)، قم- إيران، 1399 هجري شمسي.

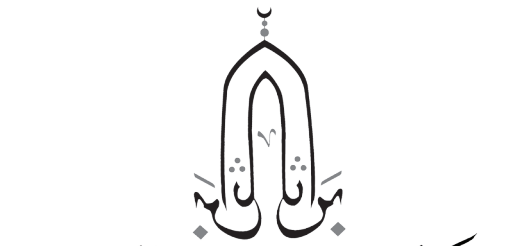

هو مركز بحثي مستقل غير ربحي، مركزه في بيروت وبغداد. ويهدف لفتح المجالات العلمية والاكاديمية الواسعة، أمام الباحثين والمتخصصين؛ للقيام ببحوث تسعى إلى فهم واقع الإنسان والإنسانية، من خلال التركيز على دراسة الميادين الفلسفية، والاجتماعية، والإنسانية المتنوعة، التي تشكّل في مجموعها ذلك الحراك الاجتماعي والانساني الكبير، الحاصل في العالم، وخصوصا في بلادنا العربية والإسلامية؛ ورصد الظواهر والتحديات الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والنفسية المختلفة، التي يمكن أن يواجهها الفرد والمجتمع، ومحاولة فهم ومدارسة الأسس الفلسفية والإجتماعية والدينية التأصيلية بموضوعية وجدة، سعيًا للوصول إلى حلول لها؛ من أجل السمو بالإنسان وتقدّمه في أبعاده الإنسانية المختلفة.

يُعتبر موضوع «المدينة الفاضلة» أو ما يسمّى اليوتوبيا من الموضوعات التي اتّخذت مساحات واسعة في الفكر والأدب العالمي، حيث سعى العديد من المفكّرين والأدباء والفلاسفة إلى تقديم تصوير لمدينة مثلى تخلو من كلّ أسباب التعاسة والشقاء، وهذا الأمر يكشف عن معنى الحياة والسعادة والعدالة عند كلّ من قدّم أدبًا يوتوبيًا أو فكرًا نظريًا حول المدينة الفاضلة. من هنا سعينا في هذا الكتاب إلى أن نعمل على بيان البنية التحتية للمجتمع المثاليّ المهدويّ وفق ما يقدّمه لنا القرآن والنصوص الدينية والعقل الفلسفي الإسلامي، وبعد ذلك بيّنّا سائر اليوتوبيات العالمية ونقدها في ضوء المهدوية، وفي الباب الأخير سعينا لتقديم «أدب محاورة « حول المدينة الفاضلة المهدوية، إذ إن أغلب اليوتوبيات قد طُرح في قالبٍ أدبيّ فأردنا تقديم نموذج مقابل

مَركزُ بَراثا للدّراسَاتِ وَالبُحوثِ
بيروت - بَغداد

Baratha Center for Studies and Research
www.barathacenter.com
barathacenter@gmail.com
مدير المركز د. محمد مرتضى
009613821638